مدنية
المسلمين
فى اسبانيا

تأليف
العلامة المجدد الدكتور
محمد تقي الدين الهلالي المغربي

الطبعة الأولي 19 /2007/2
لـ دار الكتاب والسنة
رقم الايداع بهيئة الكتب والوثائق القومية

2005/23433

جميع حقوق الطباعة والنشر محفوظة
لـ ورثة المؤلف - رحمه الله -
ولا يجوز طباعة أو تخزين المادة العلمية
إلا بعد الرجوع إليهم

دار الكتاب والسنة
للطباعة والنشر والتوزيع

المقر الرئيسي والإدارة 9 شارع احمد اسماعيل متفرع من منشية التحرير من شارع جسر السويس عين شمس الشرقية – القاهرة جمهورية مصر العربية .
جوال : 0020101021187 - 0020104671439
فاكس : 0020101021052
موقعنا علي الإنترنت
www.dar-ketab-sunah.com
البريد الإلكتروني
Dar_alktabwalsunnah@hotmail.com
Dar_alketabwalsunnah@yahoo.com
info@dar-ketab-sunah.com

ترجمة المترجم

نسبه:

هو العلامة المحدث واللغوي الشهير والأديب البارع والشاعر الفحل والرحالة المغربي الرائد الشيخ السلفي الدكتور/ محمد التقي المعروف بـ محمد تقي الدين، كنيته أبو شكيب « حيث سمى أول ولد له على اسم صديقه الأمير شكيب أرسلان »، بن عبد القادر، ابن الطيب، بن أحمد، بن عبد القادر، بن محمد، بن عبد النور، بن عبد القادر، بن هلال، ابن محمد، بن هلال، بن إدريس، بن غالب، بن محمد المكي، بن إسماعيل، بن أحمد، ابن محمد، بن أبي القاسم، بن علي، بن عبد القوي، بن عبد الرحمن، بن إدريس، ابن إسماعيل، بن سليمان، بن موسى الكاظم، بن جعفر الصادق، بن محمد الباقر، ابن علي زين العابدين، بن الحسين، بن علي وفاطمة بنت النبي محمد ﷺ.

وقد أقر هذا النسب السلطان الحسن الأول حين قدم سجلماسة سنة ١٣١١ هـ .

نشأتـــه:

ولد الشيخ سنة ١٣١١ هـ بقرية «الفرخ»، وتسمى أيضا بـ «الفيضة القديمة» على بضعة أميال من الريصاني، وهي من بوادي مدينة سجلماسة المعروفة اليوم بتافيلالت الواقعة جنوبا بالمملكة المغربية. وقد ترعرع في أسرة علم وفقه، فقد كان والده وجده من فقهاء تلك البلاد.

رحلاته لطلب العلم وخدمته للدعوة:

قرأ القرآن على والده وحفظه وهو ابن اثنتي عشرة سنة ثم جوده على الشيخ المقرئ أحمد بن صالح ثم لازم الشيخ محمد سيدي بن حبيب الله التندغي الشنقيطي فبدأ بحفظ مختصر خليل وقرأ عليه علوم اللغة العربية والفقه المالكي إلى أن أصبح الشيخ ينيبه عنه في غيابه، وبعد وفاة شيخه توجه لطلب العلم على علماء وجدة وفاس آنذاك إلى أن حصل على شهادة من جامع القرويين. ثم سافر إلى القاهرة ليبحث عن سنة المصطفى ﷺ، فالتقى

ببعض المشايخ أمثال الشيخ عبد الظاهر أبو السمح، والشيخ رشيد رضا، والشيخ محمد الرمالي وغيرهم، كما حضر دروس القسم العالي بالأزهر ومكث بمصر نحو سنة واحدة يدعو إلى عقيدة السلف ويحارب الشرك والإلحاد. وبعد أن حج توجه إلى الهند لينال بغيته من علم الحديث فالتقى علماء أجلاء هناك فأفاد واستفاد؛ ومن أجل العلماء الذين التقى بهم هناك المحدث العلامة الشيخ عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري صاحب «تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي» وأخذ عنه من علم الحديث وأجازه وقد قرَّظه بقصيدة يُهيب فيها بطلاب العلم إلى التمسك بالحديث والاستفادة من الشرح المذكور، وقد طبعت تلك القصيدة في الجزء الرابع من الطبعة الهندية؛ كما أقام عند الشيخ محمد بن حسين بن محسن الحديدي الأنصاري اليماني نزيل الهند آنذاك، وقرأ عليه أطرافا من الكتب الستة وأجازه أيضا. ومن الهند توجه إلى الزبير «البصرة» في العراق، حيث التقى العالم الموريتاني السلفي المحقق الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، مؤسس مدرسة النجاة الأهلية بالزبير، وهو غير العلامة المفسر صاحب «أضواء البيان» واستفاد من علمه، ومكث بالعراق نحو ثلاث سنين ثم سافر إلى السعودية مرورًا بمصر حيث أعطاه السيد محمد رشيد رضا توصية وتعريفًا إلى الملك عبد العزيز آل سعود قال فيها: «إن محمدا تقي الدين الهلالي المغربي أفضل من جاءكم من علماء الآفاق، فأرجو أن تستفيدوا من علمه»، فبقي في ضيافة الملك عبد العزيز بضعة أشهر إلى أن عين مراقبا للتدريس في المسجد النبوي وبقي بالمدينة سنتين ثم نقل إلى المسجد الحرام والمعهد العلمي السعودي بمكة وأقام بها سنة واحدة. وبعدها جاءته رسائل من إندونيسيا ومن الهند تطلبه للتدريس بمدارسها، فرجح قبول دعوة الشيخ سليمان الندوي رجاء أن يحصل على دراسة جامعية في الهند، وصار رئيس أساتذة الأدب العربي في كلية ندوة العلماء في مدينة لكنهو بالهند حيث بقي ثلاث سنوات تعلم فيها اللغة الإنجليزية ولم تتيسر له الدراسة الجامعية بها. وأصدر باقتراح من الشيخ سليمان الندوي وبمساعدة تلميذه الطالب مسعود عالم الندوي مجلة «الضياء». ثم عاد إلى الزبير «البصرة» وأقام بها ثلاث سنين معلما بمدرسة «النجاة الأهلية» المذكورة آنفا. وبعد ذلك سافر إلى جنيف بسويسرا وأقام عند صديقه أمير البيان، شكيب أرسلان، وكان يريد الدراسة في إحدى جامعات بريطانيا فلم يتيسر له ذلك، فكتب الأمير شكيب رسالة إلى أحد

أصدقائه بوزارة الخارجية الألمانية يقول فيها : «عندي شاب مغربي أديب ما دخل ألمانيا مثله، وهو يريد أن يدرس في إحدى الجامعات، فعسى أن تجدوا له مكانا لتدريس الأدب العربي براتب يستعين به على الدراسة»، وسرعان ما جاء الجواب بالقبول، حيث سافر الشيخ الهلالي إلى ألمانيا وعين محاضرًا في جامعة «بون» وشرع يتعلم اللغة الألمانية، حيث حصل على دبلومها بعد عام، ثم صار طالبًا بالجامعة مع كونه محاضرًا فيها، وفي تلك الفترة ترجم الكثير من الألمانية وإليها، وبعد ثلاث سنوات في بون انتقل إلى جامعة برلين طالبًا ومحاضرًا ومشرفًا على الإذاعة العربية، وفي سنة ١٩٤٠م قدم رسالة الدكتوراه، حيث فند فيها مزاعم المستشرقين أمثال: مارتن هارثمن، وكارل بروكلمان، وكان موضوع رسالة الدكتوراه: «ترجمة مقدمة كتاب الجماهر من الجواهر مع تعليقات عليها»، وكان مجلس الامتحان والمناقشة من عشرة من العلماء، وقد وافقوا بالإجماع على منحه شهادة الدكتوراه في الأدب العربي. وأثناء الحرب العالمية الثانية سافر الشيخ إلى المغرب، وفي سنة ١٩٤٧م سافر إلى العراق وقام بالتدريس في كلية «الملكة عالية» ببغداد إلى أن قام الانقلاب العسكري في العراق فغادرها إلى المغرب سنة ١٩٥٩م. وشرع أثناء إقامته بالمغرب، موطنه الأصلي، في الدعوة إلى توحيد الله ونبذ الشرك واتباع نهج خير القرون. وفي هذه السنة «سنة ١٩٥٩م» عين مدرسا بجامعة محمد الخامس بالرباط ثم بفرعها بفاس.

وفي سنة ١٩٦٨م تلقى دعوة من سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة آنذاك للعمل أستاذًا بالجامعة منتدبًا من المغرب فقبل الشيخ الهلالي وبقي يعمل بها إلى سنة ١٩٧٤م حيث ترك الجامعة وعاد إلى مدينة مكناس بالمغرب للتفرغ للدعوة إلى الله، فصار يلقي الدروس بالمساجد ويجول أنحاء المغرب ينشر دعوة السلف الصالح. وكان من المواظبين على الكتابة في مجلة «الفتح» لمحب الدين الخطيب، ومجلة «المنار» لمحمد رشيد رضا رحم الله الجميع.

شيوخه:

من شيوخه رحمه الله :

- الشيخ محمد سيدي بن حبيب الله الشنقيطي

- الشيخ عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري
- الشيخ محمد العربي العلوي
- الشيخ الفاطمي الشراوي
- الشيخ أحمد سوكيرج
- الشيخ محمد بن حسين بن محسن الحديدي الأنصاري اليماني
- الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، غير صاحب «أضواء البيان»
- الشيخ رشيد رضا
- الشيخ محمد بن إبراهيم
- بعض علماء القرويين
- بعض علماء الأزهر

مؤلفاتـــه:

مؤلفات الشيخ تقي الدين الهلالي رحمه الله كثيرة جدا وجمعها ليس بالأمر الهين لأنها ألفت في أزمنة مختلفة وبقاع شتى، **ومنها** :

- الزند الواري والبدر الساري في شرح صحيح البخاري [المجلد الأول فقط]
- الإلهام والإنعام في تفسير الأنعام
- مختصر هدي الخليل في العقائد وعبادة الجليل
- الهدية الهادية للطائفة التجانية
- القاضي العدل في حكم البناء على القبور
- العلم المأثور والعلم المشهور واللواء المنشور في بدع القبور
- آل البيت ما لهم وما عليهم
- حاشية على كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
- حاشية على كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب
- الحسام الماحق لكل مشرك ومنافق
- دواء الشاكين وقامع المشككين في الرد على الملحدين

- البراهين الإنجيلية على أن عيسى داخل في العبودية وبريء من الألوهية
- فكاك الأسير العاني المكبول بالكبل التيجاني
- فضل الكبير المتعالي «ديوان شعر»
- أسماء الله الحسنى «قصيدة»
- الصبح السافر في حكم صلاة المسافر
- العقود الدرية في منع تحديد الذرية
- الثقافة التي نحتاج إليها «مقال»
- تعليم الإناث وتربيتهن «مقال»
- ما وقع في القرآن بغير لغة العرب «مقال»
- أخلاق الشباب المسلم «مقال»
- من وحي الأندلس «قصيدة»

وفاته:

في يوم الاثنين ٢٥ شوال ١٤٠٧هـ الموافق لـ ٢٢ يونيو١٩٨٧م أصيبت الأمة الإسلامية بفاجعة ومصيبة يصعب على القلم وصفها، وهي مصيبة موت الشيخ تقي الدين الهلالي - رحمه الله - وذلك بمنزله في مدينة الدار البيضاء بالمغرب. وقد شيع جنازته جمع غفير من الناس يتقدمهم علماء ومثقفون وسياسيون.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا، يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**» رواه البخاري

فنسأل الله الكريم أن يرحم الشيخ رحمة واسعة ويدخله فسيح جناته

مقدمة المترجم

وهو الدكتور محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي الحسيني

الحمد لله الذي رفع المسلمين والعرب بنصرهم لدعوة الرسول الكريم محمد ﷺ إلى أعلى درجات الرقي، ثم خفضهم بترك هذه الدعوة المباركة إلى أسفل سافلين، ولن يعود لهم مجدهم الغابر إلا برجوعهم إلى نصرة الإسلام، والاهتداء بهدي النبي عليه الصلاة والسلام، أحمده حمد معترف بذنوبي، راج رحمة ربي، وأصلي وأسلم على خاتم النبيين وإمام المرسلين محمد النبي الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإني كنت إبان الحرب العالمية الماضية في مدينة غرناطة ببلاد الأندلس من إسبانية مدة أربعة أشهر، وكان الطلاب المغربيون في جامعة غرناطة يترددون على كل يوم في الفندق الذي كنت نازلاً به، ويشتكون إلى ما يسمعونه من أساتذتهم من ذم المور، وهو اسم المغاربة باللغات الأوروبية، ويزعمون أن كل شر موجود في البلاد الأسبانية وكل عادة قبيحة هي مما خلفه المغربيون إبان حكمهم لتلك البلاد، وكان عندي كتاب جوزيف ماك كيب المبسوط ومختصره وأعطيتهم أدلة قاهرة على عكس ما زعموا يضربون بها أساتذتهم، ثم بدا لي أن أترجم الكتاب المختصر لأن نشره أسهل، فترجمته بعد ما رجعت إلى العراق الذي هو وطني الثاني وقد أقمت فيه خمسا وثلاثين سنة، ولا يزال أولادي مقيمين هناك بالبصرة، ولولا الثورة الأولى بزعامة عبد الكريم قاسم ما رجعت إلى المغرب ولا فكرت في الخروج من العراق وقد نفذت نسخ الطبعة الأولى منذ زمان، والتمس مني غير واحد من المغاربة المخلصين لدينهم ووطنهم إعادة نشر هذا الكتاب لعله يوقظهم، ويوقظ إخوانهم المسلمين من هذا النوم الثقيل للتخلص من هذا الذل العظيم، ولم يطلعوا على المجد المنقطع النظير الذي خلفه لهم آباؤهم وهم عنه غافلون.

والله أسأل أن ينفع به كل من قرأه أو سمعه وهو السميع المجيب.

الإهداء

إلى الطالب المغربي الوطني،

أيها الولد العزيز، أو الأخ الكريم، إليك أقدم هذا الكتاب الذي هو خطوة في درس مناقب أسلافك العبقريين الذين ملؤوا الخَافِقَيْنِ مجدا وسؤددا، ورجائي أن تستمر في إحياء مآثرهم وترسم خطاهم والاهتداء بهديهم، فإن بذلك وحده مع طاعة الله ورسوله، تقال عثرة المغرب ويرجع إليه عزه الغابر وسعادته السالفة والله يوفقني وإياك لذلك.

أملاه محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي الحسيني

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

لاشك أن كثيراً من الأوربيين يحملهم التعصب على إخفاء محاسن مدنية العرب والمسلمين، ولا سيما المدنية الكبرى التي أوقدوا مصباحها لأول مرة في أوربا نفسها، فتارة يخفون الحسنات ويمرون عليها مرور الكرام باللغو، وتارة يذكرونها إذا اضطروا إلى ذلك ناقصة مشوهة. والمنصفون الخالون من التعصب الممقوت قليلون جدا في هذا الزمان وفيما قبله. ولاشك كذلك أن أدباء الأمم اللاتينية والمؤرخين منهم قد اختصوا بالحظ الأوفر من ذلك الغمط والإخفاء. ولم يقتصروا على ذلك، بل أخذوا يختلقون سيئات وينسبُونها إلى العرب، وهم سادتهم وأساتذتهم طوال ثمانية قرون، ولهم الفضل عليهم وعلى كل من ضرب بسهم في الحضارة الأوربية التي انبثق فَجْرُهَا بعد قرونهم وعصورهم المظلمة عليهم. فإن المنصف من هؤلاء أعز من الكبريت الأحمر. وزاد في الطين بلة، وفي الطنبور غنة، أن أدباء إسبانيا ومؤرخيها في هذا العصر قد انتحوا هذه الناحية، وسلكوا هذه السبيل الوخيمة. وكأنهم خجلوا من خلو بلادهم من جميع آثار المدنية والحضارة التي ترغب الناس من جميع أنحاء المعمورة في زيارتها إلا الآثار العربية والإسلامية، التي استعصت على أيدي البلى وعجزت عن محوها يد الجهل والهمجية التي عبثت بكثير من أمثالها كما سنراه مسطورا في هذا الكتاب مبرهنا عليه بشهادة أساطين التاريخ في أوربا، فسولت لهم أنفسهم أن يعمدوا إلى المماطلة والمكابرة ويضللوا تلامذتهم وقراءهم بقول البهتان على العرب المسلمين، وكتمان حسناتهم وخلق السيئات لهم. وما علموا أنهم بذلك يسيؤون إلى أنفسهم؛ لأنهم إن قدروا أن يقنعوا صبيانهم بهذه الترهات والخزعبلات، فلن يستطيعوا أن يقنعوا طلبة التاريخ وأساتذته الأحرار. وقد حملوا في هذا العصر حملة شعواء على العرب الذين أكسبوا أرضهم شرفاً بفتحها وتمدينها وجعلها بدر تمام في ظلمة داجية وهي ظلمة أوربا، أوربا الجاهلة في عصورها المظلمة، فكانت كعبة لأهل العلم والأدب يحج إليها طلاب الآداب والفنون من أنحاء أوربا، ويغترفون من فيض آداب العرب والمغاربة وعلومهم، ويرجعون إلى بلدانهم رافعين مصابيح المدنية وأنوار العرفان، بل حتى في هذا

الزمان لولا البقية الباقية من آثار الحضارة العربية ثم المغربية الإسلامية لما غصت ربوع قرطبة وغرناطة وأشبيلية وغيرها من مدن الأندلس بالزائرين والزائرات من أوربا وأمريكا، ومن سائر أنحاء المعمورة في كل صيف. فكان حقهم أن يشكروا أساتذتهم العرب والمغاربة وأن يتأسفوا على ما جنته أيدي المجرمين منهم على تلك الحضارة الزاهرة في زمان محاكم المحنة والتفتيش وبعده، وسترى من ذلك شواهد في هذا الكتاب، لا أنهم يجزونهم جزاء سِنِمَّار ويكتمون فضلهم ويحاولون أن يلصقوا بهم رذائلهم كمصارعة الثيران وغيرها من العادات الهمجية والأخلاق السافلة، فإنهم لم يستحوا أن ينسبوا إلى العرب والمغاربة جميع ما عندهم من الرذائل، حتى أنهم نسبوا إليهم أنهم سنوا سنة مصارعة الثيران الوحشية التي اختصت بها إسبانيا في هذا الزمان سبحانك هذا بهتان عظيم. فمتى حدثنا التاريخ أن أحداً من العرب والمغاربة سواء أفي زمان الدولة الأموية الأندلسية أم في زمان دولة الطوائف أم في زمان دولة غرناطة النصرية، متى حدثنا التاريخ أن أحداً عقد احتفالا لمناطحة الثيران ومصارعتهم؟ وهل يناطح الثور إلا ثور مثله؟ والعرب والمغاربة لم يكونوا ثيرانا بل إنما كانوا رجال علم وحكمة ومنشئي نور وحضارة وأخلاق.

هذه الحضارة التي يقوم بها كتاب إسبانيا والمؤلفون منهم في هذا الزمان يستاء منها كل مسلم وكل عربي وكل منصف، ولكن أهل المغرب الأقصى هم أشد الناس استياء لأنهم حكموا بلاد أسبانية كلها بعد انقراض ملوك الطوائف، ثم لما قامت الدولة النصرية اكتفت الدولة المغربية بحكم شواطئ إسبانيا الشمالية من مالقة إلى رونده إلى جبل طارق، والجزيرة الخضراء وساروا في حكم هذه الشواطئ سيرة حسنة، وكانوا خير عون وحليف لدولة غرناطة العربية المسلمة ولولا إمدادهم وجهادهم ومساعداتهم لتقدمت حادثة غرناطة المؤلمة التي سترى تفاصيلها في أواخر هذا الكتاب بأربعمائة سنة. ولما كان التواطؤ على الباطل من قبل أمة بأسرها نادر الوقوع فقد وجد في هذا الزمان من الأمة الأسبانية من أدبائها من يصدع بالحق ولا يبالي بغضب الفلنخي[1] ونقمة المتحمسين المغالين في الوطنية فمن هؤلاء الأستاذ الأديب «خيل بن أمية». وهذا الأديب من الرجال ذوي الأحوال الغريبة والخصال

(١) الفلنخي: وهو حزب الجنرال فرنكو وهو حزب وطني معاد للشيوعية وهو الذي قام بالثورة الأسبانية وقضى على الجمهورية الشيوعية في إسبانيا.

العجيبة، فقد ابتلاه الله بحب العرب والمغاربة والصدع بفضائلهم، وقرع المبطلين بالحجج الدامغة، والبراهين القاطعة وكان ذلك سببا في تعصب ولاة الأمر عليه وحرمانه من المناصب الأدبية والعلمية، فأصابه بسبب ذلك فقر مدقع وتحمل كل ذلك صابرا مخلصا لعقيدته لا يحول عنها ولا يزول، وكان صديقاً حميماً للأمير شكيب أرسلان. ولما أعلنت الدعاية الأسبانية أنها تريد إحياء المآثر العربية والمغربية والأدب العربي في إسبانيا، استشير الأستاذ خيل بن أمية وأشار على الحكومة إذ ذاك أن تدعو الأمير شكيباً وتستنير برأيه، فتوجه الأمير شكيب أرسلان رحمه الله إلى إسبانيا ووضع لهم منهاجا عظيما لإحياء مآثر العرب والمغاربة في إسبانيا لو أتبعته الحكومة الأسبانية لعاد عليها بالخير العميم، ولكن المشروع مات وهو جنين وكان دعاية مجردة، وقد أشار على الأستاذ ابن أمية بعض أصدقائه أن يسافر إلى مصر فإنه يجد هناك من يعرف فضله ويستفيد من أدبه فسافر إلى مصر وبقي فيها مدة، فلم يجد فيها سوقا لترويج أدبه وعصبيته العربية، فرجع من الرمضاء إلى النار يعني إلى إسبانيا وعزي بعضهم عدم نجاحه إلى أنه يسلك سبيل الفلاسفة المهملين للتأنق في الملبس، والتملق في الكلام، ولاشك أن هذا عُذْرٌ وَاهٍ ولا يزال الأستاذ خيل بن أمية يعيش في إسبانيا معيشة ضنكا بسبب تعصبه للعرب.

ويوجد أستاذ آخر في جامعة غرناطة نسيت اسمه ليس عنده من الجرأة ما عند خيل بن أمية، ولكنه من المنصفين فهو يصرح في المحافل أن كل بلاء وكل انحطاط وشقاء أصاب أهل أسبانية سببه القشتاليون[1] فإن آخر عهدنا بالسعادة هو زمان العرب والإسلام فمنذ ذلك اليوم لم نزل في تقهقر وانحطاط إلى يومنا هذا، ولن يرجع عزنا ومجدنا إلا بالرجوع إلى العربية والإسلام، فإن درسنا للتأريخ يجبرنا على الاعتراف بهذه الحقيقة.

لأننا إذا أنعمنا النظر في تاريخ إسبانيا نجد عصر العرب والإسلام نورا بين ظلامين، وسعادة بين شقائين، وقد مضت عليها خمسة قرون ونصف قرن لم نزل نمني أنفسنا بما أدركناه من السعادة على أيدي العرب، ولكننا إلى الآن لم نظفر بشيء. ولا أعرف أحداً من أدباء

---

(١) القشتاليون: وهو جنس أسباني تغلب على غيره من الأجناس الأخرى كالكتلانيين والباسكيين وكانت لهذا الجنس اليد الطولى في محاربة دولة غرناطة العربية المسلمة ومنذ تغلب على هذه الدولة دوخ الأجناس وفرض عليهم لغته القشتالية وآدابها وصبغ جميع القوميات الأخرى بصبغته الخاصة.

إسبانيا في العصر الحاضر ينصف العرب ويعترف بفضلهم سوى هذين الرجلين.

ومن أجل ذلك وجب على كل من عنده علم بالتأريخ أن يرد باطل هؤلاء المفترين ويلقمهم أحجارهم ويلطمهم بالحقائق لطمات تأتي على بنيان شبهاتهم من القواعد فتجعله قاعا صفصفا.

وقد كنت أحس بهذا الواجب منذ زمان طويل، ولاسيما وقد شاهدت ذلك بعيني وسمعت بأذني حين أقمت بإسبانيا بمدينة غرناطة نفسها نحو أربعة أشهر، ورأيت نواحي أخرى من إسبانيا وقد كان الطلبة العرب والمغاربة الذين يطلبون العلم في جامعة غرناطة وغيرها يأتونني كل يوم متألمين شاكين مما يسمعونه من رجال الجامعة من تشويه الحقائق التاريخية ورميهم للعرب والمسلمين المغاربة بكل عظيمة من الرذائل، حتى إن بعض الطلبة افتتنوا بما زخرفوا من البهتان وصدقوهم في أكاذيبهم فكنت أقذف ببراهين الحق على أباطيل أولئك المضللين وأبين لهم مواضع تلبيسهم وتضليلهم، وأرشدهم إلى الكتب التي تريهم الحق حقا والباطل باطلا، ولكني رأيت أن أولئك الطلبة وأمثالهم وهم كثير لا يستطيعوا أن يخوضوا بحور التأريخ الطامية، وأنهم في أشد الحاجة إلى كتاب يجمع لهم خلاصة نافعة في تاريخ الدول الإسلامية بأسبانية ويكون في الوقت نفسه حجة بأيديهم يصكون بها وجوه المحرفين للتأريخ، وكنت أتذاكر يوما مع الأستاذ الأديب العبقري الذي يقل نظيره في الأدباء في الشرق الأدنى والأقصى، بل ولا نظير له حتى في الغرب لأنه جمع فضائل الشرق وأخلاقه الكريمة وأخذ من أدب الغرب أحسن ما فيه ألا وهو الأستاذ «محمد أحمد» رئيس لجنة الضباط المحامين بالبصرة، فأخرج لي كتيباً صغير الحجم اسمه[1] (مدنية العرب في الأندلس) وأباح لي خزانة كتبه العظيمة، وأرشدني إلى المصادر الإنجليزية، وكان معينا لي في بعض المشاكل اللفظية، فترجمت الكتاب ووضعت له مقدمة وعلقت عليه حواشي مفيدة وراعيت في الترجمة: المحافظة أولاً على المعني، وثانيا على جمال الأسلوب العربي وعدم خدش محياه بالمفردات الأجنبية غير المنسجمة، والتراكيب الفاسدة التي يتبرأ منها الأدب العربي الخالص فجاء وافياً بالمراد، قاهراً لأهل العناد. وما أبرئ نفسي ولا أداعي الكمال فقد تفرد به الكبير المتعال، بيد أني بعدما أتممت الكتاب وزينت عرائس

---

(١) المدنية المغربية في اسبانية.

أبكاره الفكرية ولوامع أنواره البهية، وحسبت أني لا ألبث أن أجد لها خاطبا من ذوي الغيرة على الدين والحق، وعشاق الأدب والصدق فكنت كمن يضرب في حديد بارد أو ينفخ في رماد، وبقي الكتاب في يدي بائراً، لا يجد له طابعا ولا ناشراً، وكل من رآه يكتفي بالاستحسان اللفظي ولا يُمِرُّ في السعي في نشره ولا يُحْلِي، بل يتركني في عمياء لا أدري أأصبح أم أسري، حتى اطلع علي القضية سعاة النبيل الأوحد المجاهد الأمد الشيخ مظهر الشاوي فهزته الاريحية العربية والنخوة الإسلامية وتبرع لطبع الكتاب بمائة دينار. وكأن الله ادخر له هذه المنقبة، وهيأ له هذه المفخرة، وشاء لحكمته البالغة، وقدرته النافذة، ألا يكون أبا عذرها غيره، وألا يسطر في فاتحة هذا الكتاب غيره اسمه، وأن لا يتصدره إلا صورته وكم لهذا الشيخ النبيل من مناقب ومآثر سيسجلها له تاريخ العرب والإسلام في هذا الزمان. الذي صار فيه العلم والأدب متسربلين بذل اليتم، ومتدثرين برداء الظلم، وقد قل ناصرهما وكثر خاذلهما، وعوت عليهما ذئاب الأعداء، واستنسر عليهما البغاث واستأسدت عليهما الضباع، وعلى ذلك فإن بإزاء كل ريح إعصارًا، ولن يعدَمَ الحق أنصارا، وقد كان الفضل في عرض هذه القضية عليه للأستاذ المجاهد الذي يقوم في ميدان الذب عن الإسلام مقام أمة أعني الحاج طه الفياض بارك الله في جهاده، ووفقنا وإياه للصالحات.

اعتذار

قبل أن أنهي هذا التمهيد أؤكد لكل من يقف على هذا الكتاب أو يسمع به من المسيحيين أنني لم أرد به الإساءة إليهم، كيف وقد ألفه رجل منهم وطبع في أمريكا ومؤلفه «جوزيف ماك كيب» من أمة ملكها هو رئيس الكنيسة البروستانتية وهذا الرجل لا يعادي المسيحية وحدها، بل يعادي الإسلام ويطعن فيه في هذا الكتاب وغيره، ولم أغير شيئاً مما كتبه بل ترجمته على علاته ثم نبهت عل ما يخص الإسلام من المطاعن في الحواشي، وتركت ما يخص المسيحية لأهلها. فإن لهم أقلاما طويلة وليسوا بحاجة إلى من يدافع عنهم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الدكتور محمد تقي الدين الهلالي الحسيني
خريج جامعة برلين

مقدمة وجيزة

مضت تلك الساعات السعيدة التي كنت أقضيها صباح بعض الأيام بصحبة صديقي العلامة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي قبل سنين عديدة وأساعده على ترجمة كتاب «مدنية المور» (أي المغاربة في أسبانية) وكان ذلك كما أتذكر الآن بضع سنين قبل الحرب الأخيرة. سافر صديقي إلى ألمانيا قبل نشوب تلك المصيبة الكبرى، وانقطعت الأخبار بيننا فيما بعد ولم أعرف ما جري على هذا الكتاب الذي دَبَّجَهُ يَرَاعُ (جوزيف ماك كيب) وترجمه الأستاذ العلامة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي، وانتهت الحرب وسررنا بزيارة الصديق الفاضل وكان قد نجا من ألمانيا بأعجوبة والحمد لله ولكنه أخبرني أن الكتاب لم يطبع بعد، وأن النسخة الوحيدة منه التي كانت توجد لديه قد ذهبت طعمة للقصف الجوي مع بقية كتبه وأثاثه وأمواله، لا أقدر على وصف السرور الذي أبرزه الدكتور لما أخبرته أنه توجد لدي نسخة أو نسختان من تلك الرسالة التي كانت عبارة عن ثمرة أتعابه ونتيجة تدقيقاته خلال الساعات التي كنا نقضيها سوية، وكما علمت أنه تشبث بطبعها ولم ينجح إلا في هذه الأيام وذلك بفضل المحسن الكبير والوطني الغيور السيد مظهر الشاوي الذي وضع مائة دينار لهذا الغرض تحت تصرفه وتصرف الأستاذ الفاضل السيد محمد طه الفياض صاحب جريدة السجل الغراء (الذي لا أغالي لو قلت أنه هو الوحيد بين الصحفيين في إعلاء كلمة الإسلام والوطنية الطاهرة ونشر المبادئ الدينية المقدسة).

وأما ما قام به المحسن مظهر الشاوي من الأعمال النافعة، والأمور المفيدة للوطن وأهل الوطن فهي أشهر من أن تذكر، ولا يمكن تعدادها في هذه العجالة، ونسأل الله أن يكثر من أمثاله بين الشرقيين عموما والمسلمين على الأخص، وأما خدمات صديقي العلامة الفاضل الدكتور محمد تقي الدين الهلالي للدين والأدب والتاريخ والفقه فلا ينكرها إلا من في قلبه مرض حيث قد ضحي هذا الرجل الفاضل بكافة قواه البدنية وخاطر بنفسه في الهند وأفغانستان والمملكة المغربية وإسبانيا وألمانيا في ترويج المعلومات النافعة، والأخلاق الإسلامية الصحيحة وقد فقد أثمن ما يملكه وهو بصره من فرط الجهد والمطالعة والانهماك في التدقيق. لقد تشرفت بمعرفته منذ أكثر من خمس عشرة سنة، ولا أقول جزافاً إذا بينت إلى

القارئ الكريم أن الدكتور محمد تقي الدين الهلالي من الأفذاذ الذين يعتقدون بأنهم أملاكٌ مُشَاعَةٌ لشعبه، وأنه بمثابة شمعة تذاب كي تنور محيطها.

إن مؤلف الرسالة – جوزف ماك كيب – علم من أعلام الفلسفة والتاريخ والعلوم الطبيعية والاجتماعية وغيرها، ويكفيك أنه قد صنف مائتي مجلد في العلوم المختلفة وترجم ثلاثين كتاباً وألقي ألفي محاضرة، وإن آخر ما ألفه في هذه السنة كتاب يسمي بـ «دائرة المعارف لمن يحكم العقل»[1] وقد جاء هذا السفر الجليل آية في التدقيقات العلمية، والتنقيبات التاريخية ويحتوى على ما يقارب ألفا وثمانمائة موضوع، وكل منها مدعم بالمتون المعتبرة والأسانيد التي يذكرها في آخر المقال. الحقيقة أن الإنسان يتعجب ويتحير من سعة معلومات هذا المصنف الكبير الذي وصفه الأمريكيون بـ «أكبر عالم في العالم» – كان هذا الرجل راهبا في أحد الأديرة وترك الرهبانية بعد أن قضي اثنتي عشرة سنة فيها، وألف رسالة «اثنتي عشرة عاماً في دير» وكتب ما كتب في ذلك الموضوع – لسنا هنا بصدد البيان عن معتقداته بل إنما نود أن نعرفه إلى القارئ فقط ونكتفي بالقول أنه بنفسه دائرة معارف ناطقة متحركة ونضيف على ذلك أنه أكثر تعصباً للمدنية الإسلامية في أسبانية من كثير من المسلمين أنفسهم، ولكنه منصف لا يتعدى حدود الإنصاف والحقيقة ولا يقول شيئاً إلا ما تؤيد البيانات والمستندات المعتبرة.

وفي الختام لا يسعنا إلا أن نكرر الثناء على المترجم المبجل وعلى المحسن الفاضل وصاحب السجل الذين سببوا إدخال هذا الكتاب الجليل إلى حظيرة خزانة الأدب وكم كنا نود أن تكثر أمثال هذه الرسالات التاريخية في المكتبة العربية.

البصرة   كانون الأول ١٩٤٩   محمد أحمد (المحامى)

---

(١) A Rationalist Encyclopaedia

ترجمة المؤلف

ينبغي لنا أن نذكر بين يدي الكتاب شيئا في التعريف فنقول:

هو العالم الشهير، المصنف الكبير الطائر الصيت في الدنيا كلها (جوزف ماك كيب) (Joseph Macabe) ولد في سنة ١٨٦٧م، وكان أبوه كاثوليكيا وأمه انتقلت من الكاثوليكية إلى البروستانتية، فأرسلاه إلى دير كاثوليكي، وتعلم مبادئ العلوم هناك. وكانت أمه تري في المنام أن ابنها سيكون قسيسا. فانخرط في سلك الرهبان وسنه إذ ذاك خمسة عشر عاما. ويخبر عن نفسه أن المبادئ التي حصلها لذلك العهد كانت تافهة جداً رَدِيَّةً؛ لأنها كانت معجونة من اللاتينية ولكن في أسفل دركاتها وأقبح لهجاتها. وقليل من تاريخ المذهب الكاثوليكي، والمنطق بالشكل الذي كان يعلم به قبل مائة سنة، وما وراء الطبيعة بالشكل الذي كان يعلم به قبل سبعة قرون، والأخلاق بالشكل الذي كانت تعلم به في الأزمان الغابرة، حتى الفلسفة التي كان ماك كيب يتعلمها في جامعة لوفين Leuvain التي يبالغون في مدحها كانت بالية، ولم يكن هناك في الدير أثر للزهد في الأكل والشرب، بل كان الأمر بخلاف ذلك، لأن التلاميذ كانوا يجبرون على شرب الجِعَةِ والكلاريت (نوعان من المسكرات) كل يوم. وهذان المشروبان مع الطعام النفيس الذي كان وافرًا في الدير أثرت في معدته. ويقول ماك كيب : «إن الأثر الوحيد الذي تركه الدير في نفسي من البركات والتقديس هو اختلال في معدتي». ولكن يظهر أن تلك الإقامة نفعته من جهة أخرى إذ صار عالما بما يجري في خبايا النظام الكاثوليكي. فترك الدير بعد أن قضي فيه اثنتي عشرة سنة وألف كتابه الشهير «اثنتا عشرة سنة قضيتها في الدير». ومن ذلك الحين صار عدوا مبينا للمذهب الكاثوليكي بل لجميع الأديان. وأخذ يمضي أوقاته في البحث والتنقيب والفكر والتحقيق ويؤلف الكتب فبلغت مؤلفاته حتى الآن ٢٥٠ كتابا. وألقي ألوفا من المحاضرات. سافر إلى نواحي أميركا وميكسيكو وأوستراليا ونيوزيلاندا لإلقاء المحاضرات. هذا عدا المحاضرات التي ألقاها في ربوع بلاده الانكليزية. والمناظرات التي ناظر فيها كبار المفكرين مثل سركونند إيل Cauon Doyle في الأمور الروحانية، وهو فارس فذ في ميدان المناظرة يكثر من إيراد البراهين ويتفنن في العبارات البليغة التي تخلب ألباب المستمعين وتجعلهم

لآرائه مذعنين. وعلى ذلك فالشهرة الواسعة التي حصلها جاءته من ناحية الكتابة والتأليف، لأن المزية الخاصة التي يمتاز بها: هي عدم حصر أفكاره واستقراءاته في شعبة واحدة من العلم، بل جعل جميع العلوم أمامه واتخذها مقاصد للبحث والتحقيق. فصار عارفا لجميعها. وله براعة فائقة في الفلسفة والتأريخ ومعرفة بالأدبيات وإحاطة بجميع النهضات العلمية والفكرية في تاريخ البشر. وقد تكلم في المدنيات القديمة بل في العصور التي قبل التاريخ بسهولة كأنما يذكر أمورا شاهدها في زمانه.

وأما في المباحث الدينية وتواريخ الأديان فيمكننا أن نقول: إن ذلك من اختصاصه ونظرا لعلمه الغزير بالتاريخ والعلوم أصبح منتقدا عظيماً في هذا المقصد وناهيك ما يقول في شأن الكنيسة النصرانية وننقل لك كلامه بلفظه:

«إن ما عملته الكنيسة في ألف سنة وهي مدة حكمها وسلطانها كان ضئيلاً حتى أن أكثر من تسعة وتسعين في كل مائة من الناس لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة فإذا أراد النصاري أن يفتخروا بهذا التسجيل التاريخي فمرحباً! »

ومن مزاياه أنه لا يقنع بالأقوال المجردة بل يحقق المدعياتِ كلها بنفسه ويستنطق البراهين وينقب في أعماق التاريخ ثم يحكم. وهو متضلع في اللغات اللاتينية واليونانية والفرنسية والألمانية وسواها من اللغات الأوربية، وعلاوة على ما ألف من الكتب في بلاده «انكلند» ذهب إلى أميركا في سنة ١٩٢٤ واتفق مع هولدمن جوليس (Hildmen Julius) الناشر الشهير أن يؤلف له خمسين كتابا من الأجزاء الصغيرة ينشرها له. ولكن هولدمن يقول في سنة ١٩٣٤: أن جوزيف ماك كيب ألف أكثر من سبعين كتابا في فنون مختلفة. وألف أيضا كتبا كبارا في تلك المدة، ويمكنك أن تعرف أهمية هذه الكتب إذا ذكرنا لك بعضها هنا، وهي:

(١)	مفتاح التهذيب	أربعون جزءاً
(٢)	كتاب الأخلاق	اثنا عشر جزءاً
(٣)	مفتاح الحب والزواج	ثمانية من المجلدات
(٤)	الرجال المائة الذين حركوا العالم	سبعة عشر جزءاً
(٥)	الحكاية الحقيقية عن الكنيسة الكاثوليكية	ستة من المجلدات الكبار

(٦) خلاصة علوم هذا العصر	جزء واحد
(٧) أفكار كبيرة بعبارات سهلة	جزء واحد
(٨) حقيقة الكنيسة الكاثوليكية	جزء واحد
(٩) الكتب المحرمة من قبل الكنيسة اللاتينية	جزء واحد
(١٠) الخرافات العامة	جزء واحد
(١١) صعود الآلهة وانحطاطها	ستة أجزاء
(١٢) خزانة كتب الالتجاء إلى العقل	أتم منه أربعة أجزاء

وقد بجله الأمريكيون حتى جعلوه أكبر عالم في الدنيا. وهو يحسن عشر لغات. وقد كتبوا كثيرا في التنويه به. يقول أحد الكتاب البارعين: إن مواجهة جوزيف ماك كيب مثل الصدمة الكهربائية.

أما كتابنا: هذا «المدنية المغربية في إسبانيا» فهو كما ستراه فريد في بابه على صغر حجمه يحتوى فوائد جمة وأخباراً مهمة في ناحية من نواحي عظمة أهل أسبانية بغاية الإنصاف والبعد عن التأثر بالعصبية الدينية أو الوطنية، وقلما تجد مثل ذلك فيما كتبه الأوربيون وعِبدانهم المقلدون لهم الإمعات من الشرقيين، حتى انطمست معالم الحقيقة بمكايد الكنيسة الغربية، ودسائسها أو كادت، ولو أردنا أن نجمع كل ما قاله هذا المؤلف في تضاعيف كتبه في مدنية أهل أسبانية لاجتمع لنا من ذلك مجلد كبير، ولكننا اخترنا هذا الجزء الصغير لأنه جامع ملخص آتي على المهم في الموضوع، أما إنصافه في الحكم فيمكننا أن نستشهد عليه بما نذكر أدناه: قال المؤلف في تصنيفه المشار إليه أعلاه «خلاصة علوم هذا العصر»: لا ريب أن القرون الطوال التي اتسعت فيها هذه المدنية المحمدية من البرتغال غرباً إلى بلاد فارس والهند شرقاً، كانت تتخللها بعض الفترات. وهي الأوقات التي يكون الحكم والسلطان فيها للمتعصبين. ولكن الحقيقة المثلي التي يتجاهلها مؤرخونا في تأليفهم بصورة فظيعة هي أنه من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر وصلت الفنون والآداب والإنسانية عند (المور) إلى المستوى الذي كانت قد وصلته المدنية اليونانية الرومية إن لم نقل إنها فاقتها، وسأعرض للفنون والآداب فيما بعد، ولكن لابد لي أن أذكر هنا ما ذكرته في مؤلفاتي: أن في المدنية التي تسمي مورية، ارتقي النوع البشري في إسبانيا خلال قرون عديدة إلى أعلى درجات

الهناء والغبطة والسعادة والشغف العام بكسب العلوم والفنون الإحسان إلى البؤساء وترقية الفنون والتهذيب، ولعله إلى هذه الأيام الأخيرة لم تطلع الشمس على أمة أسعد ولا أهنأ ولا أرغد عيشاً ولا أكثر رغبة في التمتع بالجمال والعلوم والأعمال المجيدة من المغربيين في أسبانية، ولا مراء في أن مؤرخينا لا يبسطون القول في هذا الفصل الذي هو أهم فصل في التاريخ لأسباب أربعة:

أولها: أن حال أسبانية وصقلية والشرق من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر هي ضد ونقيض لحال أوربة النصرانية القذرة إلى حد لا يتصور.

الثاني: مع أن العرب ابتدأ رقيهم من دركة متوحشة مثل القوط والفنداليين فقد شجعتهم بقايا مدنية يونان وفارس على أن يشيدوا مدنية زاهية في أقل من قرنين، والحال أن النصارى قطان أوربة تحت السلطان (البابوات) البوابي مضت عليهم سبعة قرون قبل أن يصلوا إلى درجة هي أدني بكثير من مستوى العرب.

الثالث: أن هؤلاء الذين شيدوا هذه المدنية الزاهرة كانوا من المتساهلين في الدين، ولم يكونوا من المتعصبين القشريين.

الرابع: كما سنبسطه في هذا الكتاب أن مدنية أولئك العرب كانت مقدمة للتجديد والترقي الذي نحن فيه اليوم، إلا أني أختصر القول هنا فأقول: إن هذه المدنية هدمها المتعصبون من نصاري أسبانية في بلادهم، والأتراك في الشرق في بدء نهوضهم إلى خدمة الإسلام. ثم قال: لقد مضي ألف سنة إلا قليلا على الناس بعد اندراس مدنية العرب قبل أن يوجد كتاب يستحق إضاعة الوقت في قراءته، وبعبارة أخرى: كانت للعرب في زمان مجدهم كتب قيمة، فلما مضوا وأحرق أكثر تصانيفهم بقي الناس ألف سنة تقريباً لا يجدون كتاباً يستحق أن يقرأ. ثم قال: قال استوارت في كتابه «تاريخ الآداب العربية»: كان في أسبانية ألف ألف مصنف ولم يصلنا من كتبهم إلا شيء قليل. وقال المؤلف في الجزء السادس من كتابه «الأخلاق»: «كان في المملكة الواسعة الإسلامية التي امتدت من البرتغال غربا إلى كردستان شرقا، وكانت على وشك الاتساع إلى الهند، كانت هناك طوائف عشرين دينا منقسمين إلى مائة مذهب. وكلهم كانوا يعيشون بسلام وتسامح. والخراج القليل الذي كان يفرض على غير المسلمين كان في الحقيقة مددا لبيت المال، ولم يكن بِقَصْدِ التعالي

عليهم وإهانتهم. والخلفاء كانوا يعلمون كيف كان النصارى يعاملون المنحرفين عن الدين في أوربة فحق لهم أن يفتخروا بأنهم أفضل وأعدل ملوك الأرض» وقال في الجزء نفسه بصدد البحث في تاريخ المسلمين في مصر. «وبعد بضع سنين من فتح المحمديين للإسكندرية ثار أهلها وشقوا عصا الطاعة. فاضطر العرب إلى هدم جانب من تلك البلدة الجميلة، ولكن حتى مؤرخو النصارى الحاضرون يعترفون بأنهم لم يقصدوا بذلك تخريبا وانتقاما، وإنما ألجأهم إليه المحافظة على البلدة. أما الرواية القائلة بأن العرب وجدوا من بقايا خزانة الإسكندرية كتباً كثيرة فأخذوا يوقدون بها أتاتين الحمامات مدة ستة أشهر، فالمؤرخون اليوم يرون ذلك حديث خرافة. ولم توجد هذه الرواية في كلام أي مؤرخ إلا بعد مضي ستة قرون من فتح العرب مصر. وقد بحث أ.ج. بتلر (A.J.Butler) بحثاً دقيقاً في هذه المسألة في كتابه «فتح العرب مصر .... وختم كلامه بأن هذه الرواية أسطورة حقيرة. وليس لها أساس تاريخي البتة. وقد ذكر استانلي بول هذا الكلام نفسه في الجزء السادس من كتاب «تاريخ مصر» تأليف فليندرس بتري (Flinders Pertrie) وليس هناك بينة على أنه كانت بالإسكندرية خزانة كتب عمومية في ذلك الزمان. والظاهر أن النصارى كانوا قد أحرقوا جميع الكتب وأتلفوا ما بقي منها تدريجياً في مدة طويلة قبل ذلك بزمان. وقال المؤلف في الجزء نفسه: «لا اعتقد أن الرق كان من سيئات المور[1] أو العرب، لأن عبيدهم كانوا أسعد حالاً من معظم سكان أوربة. وإذا علمنا أن النصرانية لبثت ثمانية أو تسعة قرون تذم الرق ثم باركت على استرقاق السود فكيف ننتظر من العرب أن يبطلوا الرق في ثلث تلك المدة» ولعل المؤلف يشير بقوله: «إلى ما تقرر: أن النخاسة كانت شائعة في جميع بلاد أوربة إلى أوائل القرن التاسع عشر. وقال المؤلف في الجزء المذكور: «ولست الآن بصدد التحقيق في آدابهم في النكاح ولكني من حيث أنا مؤرخ في الأخلاق أستنكر ما يقول بعض من لم يحقق الأمر من عامة المؤلفين: أن العرب كانت أخلاقهم في تلك الناحية فاسدة وأنهم كانوا مستهترين هادمين لصلاح أهل مُجْتَمَعِهِمْ، فإن الحقائق التاريخية تكذب هذا القول. وكل كتاب معتبر في المدنية المحمدية بل حتى (الفصول القليلة من تاريخ القرون الوسطى) المطبوع في كمبرج، وهي في الحقيقة قسمة ضيزى لناحية مهمة كهذه، تشهد أن العرب كانوا يعطون

---

(١) المقصود بالمور: المغاربة.

الحياة حقها. وكانوا خير أمة أخرجت للناس من أول التاريخ إلى الآن. وإذ قد عرفت أخلاق العرب واعتدالهم في أمور المباشرة فدونك لمحة تبين لك أخلاق رجال الكنيسة فضلا عن غيرهم من الأوربيين في ذلك الزمان:

إن عمل قوم لوط كان شائعا في ذلك الزمان في جميع أنحاء أوربة. وفي أواسط القرن الحادي عشر الذي هو آخر زمان نتكلم في شؤونه في هذا الجزء، رأي الكاردينال داميان أن اللواط شائع بين القسيسين والرهبان في إيطالية وبلغ الأمر إلى أنه ألف كتابا في ذلك وأرسله إلى البابا (ليو التاسع) (Leo IX) والتمس منه أن يتدارك ذلك الأمر ويأخذ في قطع ذرائعه وأسبابه، يستغيث به أن يعاقب كل راهب أو قسيس يثبت عليه اللواط بحلق رأسه والبصاق في وجهه وحبسه في حجرة مظلمة، ولما وصل كتابه إلى البابا تقبله وأظهر الارتياح به إلا أنه رأي أن لا يبلغ العقاب بأولئك الفساق إلى الحد الذي اقترحه الكاردينال المذكور، ولكن يعاقبون بما هو أخف وأليق بالرحمة والشفقة. فبقيت تلك الفاحشة جارية كما كانت واسم كتاب داميان الذي أهداه إلى البابا «عمورة» وهو اسم قرية قوم لوط. وفي كتاب داميان ما هو أدي وأمر مما يدل على تمام الهمجية وهو الزنا بالمحارم وأنه كان شائعاً هناك أيضاً. ولهم أعمال من وراء ذلك كانوا لها عاملين هي الغاية في الخسة والهمجية نضرب عنها صفحا لأن القلم يخجل عن ذكرها . اهـ ... من الجزء الخامس من كتاب الأخلاق. وهذه لمحة ونموذج من غوص هذا الرجل على الحقائق التاريخية واستخراجه مكنون ما في أحشائها. ومن يقرأ الكتب الإنكليزية يمكنه أن يطلع من ذلك على العجب العجاب. وليعلم من يقف عليه أنه ليس قصدنا بما ترجمناه هنا الإساءة إلى أحد من الناس كائنا من كان، وإنما نريد أن نطلع قراء اللغة العربية على ما هو رائج ومتداول في النوادي الإنكليزية والأمريكية، وليس ذلك بسر يمكن إخفاؤه، كيف وقد طبعت منه مئات الألوف وعرفه الهادي والبادي. فهذا عذرنا «والعذر عند كرام الناس مقبول».

المدنية المغربية فى إسبانية

تأليف جوزف ماك كيب

الفصل الأول
الهلال والصليب

لقد أطلقت لفظ: «العصور المظلمة» كسائر المؤرخين في تؤيليفي هذا على أكثر عصور الممالك النصرانية انحطاطا على العموم وخصوصا للقرن العاشر المسيحي. تنصرت الممالك الأوربية قبل ذلك بخمسة قرون أو ستة قرون تقريبا مضت من يوم تغلب (البابوات) والأساقفة على إرادة الملوك، وحملوهم على إبادة كل مصدر من مصادر الإلهام يخالفهم أو يباريهم. فأغلقوا المدارس والمعابد وقضوا على العلم والأدب. وكانت غايات التيوتونيين من الشمال على أوربة قد انقطعت إلا ما كان من أهل الشواطئ الغربية من أوربة، فإنهم كانوا إلى ذلك العهد يقاسون هجمات رجال الشمال الأقصى.

وقد رأينا كيف كانت الممالك النصرانية.

وإذا استثنينا بعض المواضع في أوربة كالبندقية إذ كان فيها بقية تافهة اصطلاحية من علم اليونان تخفف من شرهم وهمجيتهم، فإن أوربة كلها كانت في تباب وخراب: اقتصاديا واجتماعيا وعقليا. وكان ذلك العهد أشد سوادا وظلمة وانحطاطا من سائر عصور البابوية. ومن ذلك الزمان أطلق الأساقفة القسيسون والرهبان والراهبات الأعنة في الدعارة والشهوات البهمية، ولم يكونوا في ذلك الزمان يتسترون حتى بجلباب النفاق. ولو أن غنيا مليونيا من أهل هذا العصر كان في ذلك الزمان لقدر أن يشتري مملكة بأسرها. وكان تسعة وتسعون في المائة خدما يعاملون بأقسى ما يعامل به العبيد. ولم يكن ولا واحد في المائة من الرجال ولا واحدة من الألف من النساء يقدر على القراءة. وكان الضعيف مضطهداً مقهورا مسحوقاً تحت الأقدام مغموساً في الطين والدم[1] بل حتى القوى كان مهدداً بالأوبئة الوافدة والسيوف اللامعة على الدوام، والنجوم ذوات الأذناب في السماء، وجنود العفاريت الهائلة في الهواء.

تقول كتابة منقوشة في جدار بيعة عظيمة في لندن: إن أردت أن تعرف أثره فانظر إلى ما حولك. والمعنى بذلك بناء ماهر (يعني إن أردت أن تعرف كنه مهارة هذا البناء الذي بني

---

(١) كناية عن كثرة الظلم.

البيعة فانظر إلى ما حولك كما قال الشاعر العربي:

تلــــك آثارنــــا تــــدل علينــــا فــــانظروا بعــــدنا إلى الآثــــار

كذلك إن أردت أن تعرف أفكار النصرانية الاجتماعية، فادرس القرن العاشر فلا زخارف قول الواعظين، ولا كذب المعتذرين ولا الإذعان السياسي من المؤرخين يقدر أن يخفي عن ذوي الألباب عظم تبعة الكنيسة، ولاسيما البابوية في ذلك الزمان الذي بلغ فيه الانحطاط إلى دركة لا نظير لها. وإنه لفصل من أشد الفصول البشرية شقاء وحزنا من الفصول التي استشهدت فيها الإنسانية، وأنه لأفظع فصل من فصول غضب الله. حقا لقد حطم بولس من ناحية، وأوكستين من ناحية أخرى مدنية الإنسان. فهل هذا هو الذي سمياه – بعيدين عن اتباع الهوى مدنية الله .... ؟

لقد فازا في جميع بلاد أوربة إلا زاوية واحدة ألا وهي جزيرة (إيبريا) – الأسبانية – التي نسميها اليوم إسبانيا والبرتغال. لقد أزيل الصليب من تلك الأرض في ابتداء القرن الثامن وحكمها المحمديون. أجل لقد لمعت رايات العرب المطرزة محمولة على متن القرآن ظافرة تجتاز جبال (بيونيس) تتألق في شمس (بروفينس) [١] – فرنسة – ووصلت إلى (ليون) وقرى بركاندي[٢] وصارت الممالك النصرانية مهددة. والمدرسون الأغمار في مدارسنا العالية لا يزالون يقولون للأطفال الأغرار – ناقلين – من مختصرات كتيبات التاريخ غير النزيهة ويطنبون في مدح (شارل مارتل) الظافر قدس سره العزيز حين لقي العرب في سهول فرنسة وصدهم عنها وحفظ العالم – من المدنية.

إذ لا يوجد في الدنيا مدرس في جامعة أو مدرسة يتجرأ أن يقول لتلامذته ما يعرفه كل مؤرخ أن العرب أقاموا مدنية من أعظم مدنيات العالم، وأن شارل مارتل وجنده كانوا لصوصا خرابا متوحشين باربارين، وأن عرب أسبانية لو تجمعوا في فتح أوربا وبقوا فيها قرنين وأقاموا فيها مدنيتهم كما فعلوا في إسبانيا لكنا الآن متقدمين خمسة قرون أكثر مما نحن عليه اليوم، ولا يستطيع عاد أن يعد مقدار الدماء والدموع والفاقة والعدوان التي سببها

---

(١) كورة في الجنوب الشرقي من فرنسة.

(٢) ليون مدينة شهيرة بفرنسة و(بركاندي) كورة من كور فرنسة يسميها الفرنسيون (ك. ر).

ذلك الظفر المبين الذي ناله شارل مارتل في السهول التي بين تور وبواتيي[١].

ربما تتعجب إذا قيل لك: إنه يجب أن يضم درس مدنية العرب في أسبانية إلى دروس الدين، ونشوء الإنسان وارتقائه. وسينقضي سريعاً جداً متى علمت أنه يثمر لنا درسين حيويين مهمين: الأول: أنه من أبطل الباطل أن يقال في أي بقعة من بقاع أوربة أنها لم تقدر أن تعود إلى المدنية بسرعة؛ لأن الدولة الرومية قد سحقها الغزاة البارباريون من أهل الشمال تحت أقدامهم. الثاني: أن البعث الحقيقي للتمدن في أوربة لا علاقة له بدين النصرانية بل هو عدوها المبين، قبل سنين قليلة وقفت على جسر قرطبة وفكرت في ذلك المنظر المحزن، وأكد لي كتاب دليل أن قرطبة قرية نشاط وتقدم، لكني ما قدرت أن أجد لذلك دليلا إلا أن يكون معزها وحميرها. وقف جوتيو[٢] في موقفي هذا ذات يوم وفكر فيما فكرت فيه فتصور أن قرطبة «هيكل » عظمي لجارية بيضاء جميلة. لكني أنا ما قدرت أن أجد شيئا من البياض وكما قال أحد الكتاب الساخرين: ثيران محملة من الأزبال ورجال أسبانيون بائسون يمشون ويجيؤون في شوارع ضيقة قذرة بلطت في القرن التاسع، ثم لم تمسها يد الإصلاح بعد ذلك. شاطئ نهرها مثلوم قذر وسكانها أقل من مائة ألف نفس يعتركون مع المعيشة في بيوتها البالية، وعلى ذلك فهذه القرية نفسها كانت قبل ألف سنة أعظم مدينة في الأرض يقارب سكانها مليونا من النفوس السعيدة المغتبطة. وكانت لهم ثروة يمكن أن تشتري بها الممالك الأوربية النصرانية مرارا مع أميال معمورة بقصور المرمر الفخيمة، تلمع بين الحدائق البهيجة ممتدة أمام ذلك النهر. وكانت فيها العلوم والفنون التي جذبت الناس إليها من كل ناحية من نواحي الدنيا حيث كان الفن والعلم يقدران حق قدرهما.

كان الروم قد مدنوا إسبانيا وبريطانيا وغاليا وجنوب جرمانيا وإيطاليا. أولئك الذين كانوا محرومين من الوحي، شهوانيين، فجارا، ماديين، جعلوا من أبنائها الأولين أمة مهذبة أرقي بلا حد من أي فرقة من أهل الممالك النصرانية بعد ألف سنة، وأنت إلى الآن تمشي في طرقهم المعبدة وتعبر على قناطرهم في إسبانيا، وهذه المدنية الرومية الأسبانية قد سحقتها

---

(١) مدينتان من مدن فرنسة.

(٢) جوتية (١٨٣٢ – ١٨٩٧) مؤرخ أديب من فرنسة ولد في مدينة هافر وتخرج في مدرسة (إيكول دي شارد) وصار قيما على السجلات الإمبراطورية وله تآليف قيمة في التاريخ والأدب.

القبائل التيوتونية تحت أقدامها مثل ما سحقت كوليا، وأشد مما صنعت بإيطاليا. لقد زلزلها الفنداليون – المتوحشون وقد حكمها القوط الغربيون وسكنوها. والحقيقة أن إسبانيا تعلمنا عدم الثقة بالمعاهدات أو الامتيازات الدينية في التاريخ حتى في ذلك العصر الأول. فالمدنية القوطية التي أسست فيها كانت تبشر بمستقبل حسن، فقد كان الناس في خفض من العيش وفي دعة. وكان لحكامها ثروة ونعيم وترف فوق ما يتصور. وكانت دواوين العدالة فيها أفضل منها في أي بلد آخر على وجه الأرض. وكما يقول سكوت[١] ولا ينبئك مثل خبير «لم تترق أمة قط تحت حكم الرئاسة الدينية وإن تقوي القسيسين الروحية قد قضي عليها تعطشهم الشديد إلى التسلط والاستبداد في الحكم على البلاد وأهلها». (الفصل الأول ص ٢٦٣) واستانلي لين بول[٢] لم يجد بدا أن يعترف بمثل ذلك في كتابه[٣] «المغربيون في

---

(١) Michael Skot مكائيل سكوت (١١٧٠ – ١٢٣٢) كان ترجمانا ورياضيا ومنجما وتخرج في اكسفورد وباريس. وبعد ما نال رتبة القسيسية تعين في أماكن كثيرة في إيطاليا ولكنه رفض منصب رئاسة الأساقفة في كشل بأيرلاندة. واكتسب العلوم العربية في طليطلة. وصار من الأدباء في قصر فريدريك الثاني وبأمر فردريك الثاني ترجم كتاب أرسطو مع شروحه العربية من اللغة العربية إلى اللاتينية. وألف كتبا كثيرة. وقد طبع بعض مصنفاته ثماني عشرة مرة بين سنة (١٤٧٧) و (١٦٦٦) وفي قصة موته أساطير كثيرة. فزعموا أنه أخبر بأنه سيموت بوقع حجر عليه لا يزيد وزنه على أوقيتين(وأنسين) وكان يلبس من أجل ذلك خوذة من الحديد ليحفظ رأسه. وبينما هو يصلي في الكنيسة ولم تكن الخوذة على رأسه بسبب كونه في الصلاة إذ وقع الحجر المهلك على رأسه فقضي نحبه. ونسبوا إليه أشياء كثيرة عجيبة في اسكوتلاندة وغيرها من الأقطار حتى أنهم لم يتركوا خبرا قديما من أخبار القدماء الخارقة للعادة إلا نسبوه إما إليه أو إلى سرويليام واليس أو إلى شيطان وقد ذكره دانتي في كتابه المشهور (جهنم) في عداد السحرة.

(٢) ستانلي لين بول (Stanly lane – poole) (١٨٥٤) ولا يزال في قيد الحياة. تخرج في اكسفورد وتعين أولا في شعبة المسكوكات في المتحف البريطاني وهناك وضع فهرستا للنقود الشرقية والغربية في أربعة عشر مجلدا. ثم سافر إلى مصر وإلى روسية في بعثة علمية وكان ينقب عن الآثار تحت أمر الحكومة المصرية . ثم تعين معلما للغة العربية في جامعة (دبلن) وقد ألف كتبا عديدة. منها (تواريخ المور[*] في أسبانية) نشر في سنة ١٨٨٧ للمرة الأولى وأعيد طبعه للمرة التاسعة سنة ١٩١٥.

(*) معناه بالعربية: المغاربة.

(٣) هذا خطأ من المصنف أوقعه فيه وفي أمثاله في مواضع من كتاب (١) جهلة باللغة العربية واعتماده فيما ينقل عن غيره و(٢) غلوه في التعصب للإلحاد والجحود و(٣) ظنه أن دين الإسلام دين زهد وتقشف كالنصرانية وأن التمتع بزينة الحياة يضاده كما يضاد النصرانية، ولذلك لم يتناقض في شيء ما تناقض في هذه القضية فتارة يروي أن أهل أسبانية كانوا متمسكين بالإسلام وشرائعه حتى منعهم التمسك بشريعة تحريم تشريح الإنسان=

إسبانية» (ص ٧٠) قال: «لاشك أن القوط كانوا متعبدين إلا أنهم كانوا يرون أن عبادتهم تكفر ذنوبهم وكانوا في الفسق والفساد مثل أشراف الروم الذين سبقوهم. وحتى القسيسون الذين كانوا يعظون ويحضون الناس على الإخوة المسيحية حين صاروا أغنياء وملكوا الضياع اتبعوا السياسة المأثورة في الجور، فصاروا يعاملون عبيدهم وخدمهم أسوأ معاملة كما كان يعمل أشراف الروم قبلهم».

وهذه صورة (إسبانيا) في القرنين السابع والثامن. فاعتبروا يا أولى الأبصار. ولما استوطن القوط الغربيون إسبانيا في القرن الخامس أظهروا على الفور أن قوة التيوتونيين البربرية إذا تزوجت بثقافة الروم تتولد منها مدنية جديدة. وذلك يبطل (كما فعله تيودوريك في إيطاليا أيضاً) الشطر الأول من الرواية المزعومة – أن النصرانية لأجل أن تمدن البربريين يلزمها زمان طويل. والذي يبطل الشطر الثاني من تلك الرواية وهو أن النصرانية كانت قوة ممدنة هو أن القوط الغربيين وكنيستهم جميعاً سقطوا إلى حضيض الجهل والرذائل والجور كسائر بلاد أوربة في خلال قرنين.

والآن دعنا ننظر من أين جاءت القوات الممدنة حقيقة؟. كانت بلاد العرب بكرا لم تفتح ولم تمدن قط حتى أواخر القرن السابع فجاء محمد وأوقد نيران الحماسة الدينية في بلاد العرب بدينه الجديد. ولم يكن دينه قوة ممدنة[1] ولم يكن قط دين من الأديان عاملا من عوامل التمدن – لكنه بعث في العرب نشاطا عجيبا فانطلقوا يفتحون البلدان ويدخلون الناس في دينهم في أرجاء العالم. وفي وقت قصير جدا استولوا على المدنيتين القديمتين الفارسية والمصرية، ولم يمض عليهم زمن طويل حتى أنشؤوا مدنية عربية فارسية. وكما قال سكوت: «لم يكن بين الهمجية والجهالة الصحراوية وبين الاستقرار والثقافة العقلية في عواصم العباسيين والأمويين إلا أقل من مائة سنة» وهنا نرى الدرس الثاني أيضا أحلى وأوضح من الدرس الذي علمنا القوط الغربيون والقوط الشرقيون. وكان العرب في الخشونة وعدم التهذيب الثقافي مثل البتيونونيين، ولكنهم لما استولوا على المدنية القديمة

= من بلوغ الدرجة العالية في علم التشريح، وفي مواضع أخرى سنراها، وتارة يزعم أنهم كانوا مدنيين خلصا لا يدينون بشيء وأحياناً يدعي أنهم كانوا متدينين تدينا سطحياً اسميا فقط إلخ تناقضه.

(١) معناه: المغاربة في أسبانية.

صاروا متمدنين تماما في خلال قرن واحد. وسكوت وإن لم يشاهد الحال أتي ببينة تامة على سبب ذلك. (اضمحل الاعتقاد في صحة الإسلام بسرعة[١] ولم تلبث دمشق العاصمة الجديدة أن سيط الإلحاد بلحمها ودمها وصار الفكر ينعكس منها إلى ما سواها من البلاد. ولم يكن الدين ليلهم المدنية ولكن إهمال أصوله سمح للطبيعة البشرية أن تمدن نفسها. وسننظر إلى أي حد ينطبق هذا على المور[٢] – العرب الغربيين ومن انطبع بطابعهم – ولكن ينبغي لنا أن نعلم كيف صار هؤلاء العرب المحمديون أو (الشرقيون) مغربيين ودخلوا أوربة بعد ما فتح العرب مصر كانوا لا يزالون متعطشين إلى الفتح وولوا وجوههم تارة أخرى شطر الغرب، وواجه أبناء العرب الصحراء فلم ترعهم ولم يعبؤوا بها، ولكن البحر أفزعهم وقد سمعوا بأن وراء الصحراء أرضا خصبة زكية التربة (تونس والجزائر ومراكش) التي عمرها القرطاجيون والروم. جعلوها غنية. ولذلك توجه أحد القواد العظام (جنرال) في ٢٠٠٠٠ من الخيل والركاب سنة ٦٤٦ وتوغلوا في مجاهل الصحاري فاجتازوا مسافة ألف ميل من الأرض على شاطئ أفريقية الشمالي. وفي نحو نصف قرن حكم العرب الشاطئ الجنوبي للبحر الأبيض كله وطمحوا بأبصارهم بنهمة وشره إلى أراضي الشاطئ الشمالي الغنية.

واستوطن بعضهم مع المغربيين[٣] – البربر السود وكما يزعمون والحق أن البربر بيض

---

(١) وهذه أيضاً من زلاته وسنبينه في هذه الحاشية على ما جاء في كتاب مما يناقض هذا.

(٢) المور معناه: المغاربة.

(٣) من الخرافات التي كانت شائعة في أوربة: أن سكان المغرب الأصليين وهم البربر سود وبعضهم يقول بين البياض والسواد، ولما كنت في مدينة (بن) محاضرا في جامعتها وطالبا ومترجما مع الأستاذ باول كالي في كتاب تخطيط البلاد الذي ألفه الأستاذ الفاضل ابن الفقيه البغدادي وذكر فيه بالتفصيل تخطيط البلاد وهو ما يسمى في هذا الزمان بالجغرافية العالمية، ومن جملة ما ذكر شعوب أوربا وأوديتها الكبيرة مثل: وادي (راين) الذي تسير فيه البواخر وجاء أستاذ في الجامعة يؤلف كتابا في آثار الأبنية القديمة فالتمس من الأستاذ باول كالي أن يلتمس مني أن أكتب له توصية لمن يساعده على زيارة الأبنية القديمة كالقرويين مثلا، فكتبت له كتاب توصية إلى العالم الشهير الأديب الشاعر الأستاذ السيد أحمد سكيرج الذي كان قاضيا في مدينة وجدة ثم انتقل إلى سطات فأعانه على أحسن ما يرام، فلما رجع جاء إلى القسم الشرقي من جامعة (بن) وشكرني على التوصية فقلت له: أخبر الأستاذ باول كالي رئيس المكتب الشرقي من جامعة (بن) عن ألوان البربر سكان المغرب فإنه يظن أنهم سود وكان ذلك في سنة ١٩٣٩ بتاريخ النصاري، فضحك ضحكا عالياً فقال: إن هذه خرافة فإني

بياضا قاتما وليس سودا – في الشاطئ المقابل لجبل طارق ولاشك أنهم تزوجوا منهم فلذلك صاروا يعرفون عند الأوربيين بالمغربيين. والقلعة الحصينة التي كانت في الشاطئ الأوربي حركت رغبتهم. وكانت بيد قائد يوناني يدعي «الكونت جوليان» تحت حكم إمبراطور اليونان اسميا. وفي سنة ١٧٥٩ أو ٧١٠ صار الكونت جوليان حليفا للمور. ويحكي أنه أرسل ابنته إلى قصر ملك القوط الغربيين فاعتدي الملك على عفافها. فاستشاط لها جوليان وعزم على الانتقام، فدعا أمير العرب إلى العبور إلى الشاطئ الأوربي وفتح إسبانيا، ووصف له الكنوز والأموال المدهشة التي في قصر ملك القوط وكنيستهم وصفا شائقاً. وأوضح له أن بلاد إسبانيا في انحطاط فلا يحتاج فتحها إلا إلى قليل من الجنود والعتاد.

وفي سنة ٧١٠ بعد بعثة استطلاعية جهز العرب قائداً بربرياً ومعه ٧٠٠٠ جندي (ثم أمدوه بخمسة آلاف فارس من البربر. وقبل انتهاء سنة ٧١١ تم للعرب تقريباً فتح شبه جزيرة إسبانيا وبقية الجنود القوطيين والأشراف والقسيسين انحصروا في بقعة جبلية صغيرة على خليج (بيسكي). وصعد العرب جبال (بيرينة) وبنوا عليها سلسلة من القلاع ليحصنوا أنفسهم من سكان (غاليا) – الآن فرنسة – الذين كانوا في نظرهم غريبي الأطوار متوحشين وبمرور الزمن كما ذكرت سابقا فتحوا (غاليا) – فرنسة – ولما وصلت أخبار هذه الفتوح وما فيها من الغنائم والأراضي الخصيبة إلى الشرق جذبت خلقاً كثيرا من العرب للالتحاق

= كنت ألفت كتابا في هيأة الجماجم أي الرؤوس البشرية في شمال أوربة فرأيت في المغرب من البربر جماجم تشبه تلك الجماجم أي في اللون والتفصيل، ولولا أني سافرت لغرض آخر وهو الاطلاع على المباني القديمة لكتبت صفة تلك الجماجم وسأضيف ذكرها في المؤلف السابق وفي هذا الزمان لا يتوهم أحد أن سكان المغرب كلهم سود، وأضيف إلى هذا الكلام أن البرابر مختلفون في الألوان كغيرهم، فبرابر المغرب يغلب عليهم البياض الذي يصل أحياناً إلى حد الشقرة، وصفرة الشعر، وبرابر في الجنوب من المغرب والجزائر فيهم شيء خفيف من السمرة بسبب أرضهم يضاف إلى ذلك الخبر الذي شاع في هذه الأيام وأحزن أهل فلسطين وسائر العرب وهو: أن الدولة الصهيونية في فلسطين نقلت سبعة آلاف من يهود الحبشة وهم سود الوجوه وبقي لها أربعة آلاف منهم تريد إلحاقهم، وقد غضب بعض يهود فلسطين من هذا الخبر ولكن الدولة الصهيونية لم تبال بغضبهم وهذا الخبر أذاعته إذاعة لندن وغيرها فهذا يقيم البرهان القاطع على خطأ جوزف ماك كيب ومن روي عنه هذا الخبر الدكتور سكوت والكمال لله. أما الباربار فهم من شمال أوربة وكانوا ظالمين متوحشين ولا علاقة بينهم وبين البربر الذين كانوا يسكنون المغرب، ولا يزالون كذلك إلى اليوم ومنهم دولة الملثمين ويسمون المرابطين ودولة الموحدين ودولة بني مرين.

بإخوانهم في الغرب. وبعث الخليفة من دمشق والياً استعمله على بلاد أسبانية ومعه أربعمائة من أشراف العرب فتجدد في العرب التعطش إلى الازدياد من الفتح. وفي وقت من الأوقات كان في بلاد فرنسة مائة ألف جندي[١] من المور يجوسون خلال ديارها ويدوخون أهلها. وفي ذلك الوقت كانوا قد بلغوا درجة عالية في التمدن والرقي. وقد رحب أهل جنوب فرنسة بهؤلاء الفاتحين ورأوا فيهم روما جددا بالنسبة إلى الفرنج والجرمانيين الشماليين المتوحشين، ولا حاجة إلى الإطناب في فشل المغربيين وعدم تقدمهم في أوربة (الذي يسمي في أكثر المدارس انتصارا للتمدن والنصرانية) وبأي شيء عاد على أوربة. بل الأجدر بنا أن ننظر في الخطة التي ساروا عليها في إسبانيا نفسها حتى أوصلوها من الرقي إلى درجة جعلت بقية أوربة بالنسبة إليها همجية متوحشة لكن قبل أن نتجاوز هذا المقام ينبغي أن نعرفك أن حضارة المغربيين وتهذيبهم تركا أثراً خالداً في أهل جنوب فرنسة فبقوا قرونا طوالا متصلين بالمغربيين من الوجهة الثقافية. فثنايا جبال (بيرنة) كانت أول مصدر من مصادر الإلهام لأوربة الباربارية. ولم يلبث أهل جنوب فرنسة أن صاروا في بلهنية العيش والرفاهية وفشا فيهم الإلحاد والانحراف عن الدين. وليست حرارة الشمس فقط هي التي جعلت سكان أرض (بروفنس) المثل الأعلى في جودة الغناء والطرب. ثم نعود إلى إسبانيا فنقول: كان الخليفة في دمشق هو الذي يولي الولاة والحكام في أسبانية، وكان هؤلاء الولاة من شعب قد سار شوطاً بعيداً في المدنية وكانوا يعملون دائماً بالأوامر التي يتلقونها من الخليفة، فشكلوا على الفور الدوائر المدنية والسياسية والنظام الزراعي. ولم يجد المغربيون مبالغة ولا إغراقاً فيما سمعوه من عظمة الكنوز الملكية والكنسية. فوجدوا في (توليدو) – طليطلة – قاعدة ملك القوط الغربيين مقدارا هائلا من الذهب واللؤلؤ. على أنه من المحقق أنهم إلى ذلك الوقت لم يقعوا على الكنوز العظيمة التي كانت مخبأة تحت الأرض حيث دفنها القسيسون عند فرارهم. هذا وقد أخذ الفارون الأولون ومنهم الأسقف معهم كثيرا من الأموال المنقولة. ويُرْوَى أن جنود المور[٢] وجدوا طائفة من رجال الكنيسة فارين ووجدوا عندهم كرسيا يوضع عليه الكتاب المقدس وكان ذلك الكرسي من الذهب

---

(١) المور : أي المغاربة.

(٢) المور في إسبانيا: أي المغاربة في إسبانيا.

الصلب الخالص مرصعا بالياقوت الزعفراني والياقوت الأحمر والزمرد واللؤلؤ يساوي بسكتنا الحاضرة نصف مليون دولار مع أن النقود في ذلك الزمان كانت تساوي عشرة أضعاف ما تساويه اليوم.

لكن مدنية العرب في إسبانيا التي بلغت أوج الرقي إنما أسست على المعيشة الاقتصادية الصحيحة في تلك البلاد نفسها . ولا يتسع المقام هنا لذكر تاريخ المغربيين. فكتاب س. ب. سكوت المرسوم بـ «تاريخ المملكة (الإمبراطورية) العربية في أوربة ١٩٠٤». يخبرنا بما شاء من ذلك في دقة وانسجام مع تقرير الأدلة. لكنه كبير في ثلاث مجلدات ضخام. فلم تزل الحاجة الماسة إلى تأليف كتاب مناسب في الحجم واف في بيان عظمة المغربيين التاريخية وكتاب (استانلي لين بول) المسمي[1] «المور في أسبانية» سنة (١٨٩٥ في «سلسلة أخبار الأمم») تأليف قوي الحجة جيد. ولكنه عن طريق المؤرخين (في ذكر ملاحم الملوك ونوادرهم). وكتاب جارلوت يونج «أخبار النصاري والمغربيين في إسبانيا» سنة (١٨٧٩) هو أيضاً تأليف نفيس بأسلوب عال يدلنا على أن المرأة النصرانية حتى هي أيضاً تأثرت بما كان للمغربيين من مدنية وحضارة. وكتاب وشنكتون أرفنك الذي أدي خدمة جليلة في استمالة الناس إلى هذا العنصر الحي في نشوء المدنية يقرأ الآن وهو معدود من أحسن المصادر الأدبية. وأما فنونهم وما بقي من قرطبة وكتاب طليطلة وكتاب إشبيلية وغيرها أفضل وأنفع ما كتب في ذلك وكتاب دوزي «الإسلام الأسباني» نشر باللغة الإنكليزية سنة ١٩١٣ ومع أنه من أوائل ما نشر من الكتب الحديثة فلا تزال قيمته عند الناس عظيمة وهو على ذلك كتاب كبير ولعل تأليف (لين يول) [2] «المغربيين في إسبانيا» وتأليف الكفرت «آثار المور» أسهل تناولا وأكثر مناسبة ويمكنني أن أوصي بقراءتها من يريد أكثر مما تسع هذه النبذة الصغيرة.

لَسْتُ هنا بصدد ما يسمى «التاريخ». وقعت فترة من الزمن اضطربت فيها الأمور وكثر عزل الولاة وتبديلهم بغيرهم اشتد فيها التحاسد والتنافس وفسدت سيرة دار الخلافة في دمشق فكثر تدخلها في أمر الولاة. ووقعت فتن عظيمة بين البربر (المغربيون الحقيقيين)

---

(١) المغاربة في إسبانيا.

(٢) المور في إسبانيا: أي المغاربة في إسبانيا.

والعرب الذين «جنوا ثمرات فتحهم» وكانت تقع غزوات بين قبائل العرب الذين جاؤوا من مختلف البلدان وآخر الأمر ظهر هناك شاب عربي من ذرية الخلفاء سنة ٧٥٦م فقبض على زمام الأمر واتخذ قرطبة قاعدة ملكه وجعل نفسه أميراً (وكان في الحقيقة ملكاً) لمملكة[١] المور في إسبانيا. وهذا الأمير والأمراء الثلاثة الذين جاؤوا من بعده هم الذين أسسوا هذه المدنية التي نحن بصدد شرحها.

---

(١) لمملكة المور في أسبانية : أي لمملكة المغاربة في أسبانية.

الفصل الثاني

المور[1] في أوج مجدهم

عظمة غرناطة التي هي أشهر مدن المغربيين اليوم يرجع عهدها إلى زمان متأخر جداً وسنبحث الآن في مدنية المغربيين التي كانت في أواسط القرن العاشر وكانت أوربة في ذلك الزمان قد بلغت الدرك الأسفل في الانحطاط. وكانت رومية متلوثة برجس الفساد. وكانت الجهود العظيمة التي بذلها شارلمان لإصلاح قسم كبير من القارة المذكورة قد خابت وكانت فرنسة نهبا مقسما لغارات قبائل الشمال وانكلند كانت كذلك لغارات الدنماركيين عليها. وكان القسيسون في كل بلد يعيثون فسادا، ولا يبالون مثقال ذرة بما نسميه مدنية. أما إسبانيا فكانت بخلاف ذلك كانت مزدهرة بالعمران، وكانت حديقة تفوق الوصف في النتاج، وكان فيها تسع من أمهات المدن وثلاثة آلاف مدينة متوسطة وعشرات الألوف من القرى وكان على شواطئ نهر الوادي الكبير – وحرفه الأسبانيون إلى كواد لكفير – فقط اثني عشر ألف قرية. ومع أن السير في ذلك الزمان لم يكن سريعاً فقد قال المؤرخون: كان السائر في بلاد أسبانية لا يسير مسافة يوم إلا ويمر على ثلاث مدن، وأما القرى فكانت لا تنقطع تقريباً. وكانت على أحسن حال من العمران، ومدينة قرطبة قاعدة ملكهم كان عدد سكانها لا يقل عن مليون. وأشبيلية كانت في وقت من الأوقات تحوى خمسمائة ألف نفس. ومدينة المرية خمسمائة ألف أيضا، وكان في غرناطة أربعمائة وخمسة وعشرون ألفا، وفي مالقة ثلاثمائة ألف وفي بلنسية مائة وخمسة وعشرون ألفا، وفي طليطلة مائتا ألف.

ويقدر مجموع سكانها بثلاثين مليونا، وزيادة السكان بهذا القدر العجيب هي في حد ذاتها دليل على الدرجة العالية التي وصل القوم إليها من المدنية. وقد علم بالاستقراء أن السكان إذا كانت صحتهم جيدة، وتدبير الصحة سائراً على أحسن حال فإن عددهم يضاعف في ربع قرن. وهذا يدلك على ما عمل المور[2] من الأعمال الجليلة، ويبين لك كيف أفسد الأسبانيون تلك الأعمال من بعد ونقضوها، وإذا علمت أن سكان إسبانيا في القرن العاشر بلغوا ثلاثين مليوناً، ويجب أن يبلغوا الآن مئات الملايين، فاعلم أنه الآن لا

(١ ، ٢) المور : أي المغاربة.

يزيد عن اثنين وعشرين مليوناً، فرقم ثلاثين مليونا في القرن العاشر برهان ساطع على ما كان للمغربيين من العلم والحكمة. وخذ مثلا انكلندا، كانوا إذ ذاك مليونين أو ثلاثة وكانت العناية بترقية الزراعة أساساً لعمران تلك البلاد.

والناس الذين لم يروا قط إسبانيا يرون فيها رأيا مبهما (أغلبه مأخوذ من الروايات والأفلام) إنها أرض خصب، خضرة نضيرة، وإزهار دائم وغناء وعشق لا ينتهيان والأندلس وهي الناحية التي استوطنها المغربيون – ولم يهتموا كثيرا بالناحية الشمالية – لها صيت ذائع في ابتهاج القلوب وقرة العيون والهوى العذري والورد وآلات الطرب. وهذه شهرة تستحقها. وأنا أحب الأسبانيين فيمن أحبه من الأقوام الذين سحت في بلادهم ولكن الطرب ليس من شمائلهم، وليست الأندلس أرض عشق وأزهار وغناء. وإسبانيا اليوم في بؤس وشقاء. مصابة بداء القسيسين تحكم حكما مرذولا. ترى في أرباضها في أكثر السنة زربية محترقة رقيقة من النبات. والفلاحون المجهودون بكل مشقة يحصلون معيشة ضنكا من الأرض ومتى زالت منها الملكية والكنيسة واستبداد الجيش يجدد فيها نظام السقي وتصير فردوسا مرة أخرى، أما الآن فهي محرومة من رأس المال والأعمال ولا ريب أنها كانت نسبياً فردوساً في القرن العاشر حتى نتجت مثل ذلك النمو في السكان. وكان لأهلها ذكاء فساعدوا به الطبيعة. وكانت الأنهار الصناعية والجداول توزع الماء وتروي الأرض حيث الفلاح الأسباني المسكين اليوم يري المطر ينزل في رؤوس الجبال وتسيل به الأودية وتجري رأسا إلى البحر. والقيعان الواسعة العقيمة اليوم كانت في زمن المغربيين حدائق غلبا وكانت تؤتي غلات ذهبية. وحتى سفوح الجبال كانت قد سطحت وألحقت بالأرض الزراعية. وفي كثير من البقاع كانت الأرض تعطي أربع غلات مختلفة في سنة واحدة. وكانت الأقوات كثيرة ورخيصة جداً. وأضاف المغربيون جميع الوسائل الشرقية إلى الوسائل الرومية في إسبانيا. فكان الآس يفوح بريحته العطرية مقرونة بريح الورد والأترج والنخل باسقات في سطورها الكريمة تواجه القبة الزرقاء. وكانت بلاد جنات. جنات لا يوجد منها اليوم إلا في قليل من البلدان، وعلى هذا الأساس قام هناك نظام صناعي تجاري في غاية الإتقان. ولا أريد أن أذكر تفاصيل هذا الأمر. وإنما أريد أن أذكر القارئ بالسيوف الفولاذية التي كانت تصنع في طليطلة والأدوات الجلدية التي كانت تصنع في قرطبة التي كانت أفضل الطرف في

الدنيا. وكيف كان الأسطول التجاري المغربي يطوف البحار في طلب النوادر والتحف الرفاهية لمئات الألوف من الناس. وكان المغربيون روما جداً. فإنهم جلبوا العلماء والمهرة في الصناعة، والنحاسين وتجار الجواري الراقصات، وتجار الحرير وتجار الجواهر من جميع أرجاء الأرض. ولم يكن الخراج مجحفاً وكان في الغالب يتألف من عشر الغلات وعشر ما يخرج من المعادن ومكاسب الصناع والتجار.

ولكن كان الدخل مدهشا وكان دخل خليفة ذلك الوقت الذي أنا بصدد الكلام عليه وهو عبد الرحمن الثالث على ما قيل أكثر من ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار سنويا. ولا تنس أن النقود كانت لها قيمة في ذلك الزمان بحيث يمكن أن يشتري بها أضعاف ما يشتري بها الآن. وسترى وصف هذه الثروة أوضح من هذا في الفصل الآتي. وكانت الثروة متساوية عند الأعيان والتجار وقد قرأنا أن وزير عبد الرحمن الثالث أهدي إلى ملكه هدية وهي ضيعة غاباتها تحتوى على عشرين ألف شجرة، وستين جارية حسناء، ومائة من الجياد الصافنات والبغال الفارهات وثمانمائة لأمة من أجود العتاد، وما يساوي مليون دولار من الذهب وغيره من النفائس.

أما المؤلفون من العرب، الذين يختلفون عن جهلة مؤرخي أوربا الرهبانيين جد الاختلاف فقد قدروا تلك الهدية بـ ٥,٠٠٠,٠٠٠ دولار.

وسترى كما قلت لك في الفصل الآتي من ذلك أكثر مما رأيت. وهناك ترى من الترف الذي أوجدته تلك المدنية شيئا يدهش العقول. وعلى ما كان عليه الملوك المغربيين من البذخ والترف فإنهم لم يهملوا المقاصد الخيرية والمصالح العامة، بل أنفقوا عليها من خزائنهم الواسعة إنفاقاً لم يفعل مثله من ملوك النصاري إلا قليل وسأعقد فصلا من أواخر الكتاب أذكر فيه أعمالهم في العلم والأدب والفلسفة. وإنما أشير هنا إلى أن الملوك الذين أنشؤوا مدنية الأندلس (من سنة ٧٥٦ إلى سنة ٩٦١) كانوا حماة كرماء ومحبين أوفياء، للعلم وأهله، وكانوا أكثر الناس سخاء وجوداً في مناصرة الشريعة والتعليم، وهم أنفسهم في كثير من الأحيان لم يكونوا قاصرين في الأدب. فالخليفة الحكم الثاني الذي كان في زمانه ملوك النصارى لا يقدر أن يكتب اسمه إلا قليل منهم كانت خزائن كتبه تحتوى على نصف مليون كتاب، ويروى أنه كان ملما بجميع ما تضمنته، وكان الخلفاء ينفقون على كثير من المدارس

من مالهم الخاص. وكان سخاؤهم بأموالهم الخاصة للمصالح العامة مثل سخائهم لها من بيت المال. وكانوا يراقبون الطرق المعبدة والجسور المتينة التي عملها الروم بعناية تامة فيصلحون ما فسد منها فكان للبلاد نظام في المواصلات يليق بصناعتها وتجارتها. وعجلات السيارات الثقيلة اليوم كانت تسير في طليطلة وقرطبة على الجسور العظيمة التي بناها الروم وجددها المغربيون. وجددوا القنوات وأنشؤوا قنوات جديدة لضمانة الماء الكافي لا للسقي فقط بل لتوزيعه في المدن على البيوت. وكان للبريد سرب من الخيل السريعة تبرده في جميع الطرق المهمة في المملكة. ولأجل أن تقدر هذه الأشياء حق قدرها ينبغي أن نتذكر دائما الاختلاف بين هذه البلاد وبقية أقطار أوربا. فاعلم أن أمهات المدن الأوربية لم توجد فيها قنوات لصرف المياه القذرة حتى بعد مضي ستمائة سنة من ذلك التاريخ فكانت المياه المنتنة النجسة تجري في طول شوارع باريس ولندن غير المبلطة أو تجتمع فيتكون منها حياض حتى بعد ما عملت النهضة في أوربة عملها قرونا طوالا.

أما في مدن المغربيين فكانت الشوارع مبلطة منورة قد سويت فيها مجاري المياه أحسن تسوية في أواسط القرن العاشر قال سكوت: بعض القنوات التي كانت تحت الشوارع لصرف المياه القذرة في بلنسية تقدر أن تسع سيارة، وأصغر قناة منهن تقدر أن تسع حماراً. وكانت الشوارع مجهزة أحسن تجهيز بالشرطة. وهذا النظام الصحي السامي كانت تعضده النظافة العامة التي يراها الأمريكيون في هذه العصور شيئاً واجباً، ولكنها في ذلك الزمان كانت في نظر الأوربيين أعجوبة من أعاجيب الرقي التام. فكانت في قرطبة وحدها تسعمائة حمام عام وكانت الحمامات الخاصة كثيرة في كل مكان أما في بقية بلاد أوربة فلم يكن فيها ولا حمام واحد. وكان أشراف أوربة رؤساء الإقطاع منهمكين في الرذائل إلى حد يحجم الإنسان عن وصفه. ولم يكن لبس الكتان النظيف معروفاً في أوربا حتى أخذت (مودة) طراز لبس الكتان من المحمديين ولم تكن الزرابي أيضا تصنع هناك، وكان الحشيش[1] يغطي أرض قصور الأمراء ومصطبات الخطابة في المدارس وكان الناس والكلاب ينجسون المحلات إلى حد يعجز عنه الوصف. ولم يكن لأحد منهم منديل في جيبه وفي ذلك الوقت، لم

---

(١) قال في القاموس: الحشيش: الكلأ اليابس قلت: يريد ذمهم بكون أرض قصورهم غير مبلطة ولا مكنوسة بل متسخة بالنبات اليابس وغيره اهـ. المترجم

تكن الحدائق تخطر ببال أحد من أهل الممالك النصرانية، ولكن في إسبانيا العربية كان الناس من جميع الطبقات يبذلون الجهود والأموال في تجميل حدائقهم العطرة البهية، وكانت الفسقيات تترقرق مياهها صعدا في صحون الدور والقصور والأماكن العامة. ولا يزال في صحن الجامع الكبير في قرطبة حوضان كبيران جميلان من مرمر يزينان ذلك الصحن، حيث كان كل مصل يتوضأ قبل أن يدخل المسجد ووصف هما سكوت في هذا الزمان (١، ٦٧٩) فقال:

«هذان الحوضان اللذان كانا من قبل متوضأ للمسلمين الغيورين من جميع الآفاق والآن يمدان بالماء سكان قرطبة النصاري ذوي المناظر القذرة المنفرة والأخلاق السبعية والجهل العظيم بمزايا الشعب الطاهر العاقل المهذب الذي تنتمي إليه هذه الذكريات الفاخرة من الفن والصناعة. هذان الحوضان يشهدان شهادة مرضية بأن لا دوام للمدنية العليا، وأن الإنسان دائما يميل بطبعه إلى التقهقر والرجوع إلى أحوال الهمجية. وتشهد بما لسلطة القسيسين من المقدرة على فعل الشر، وأن سياستهم التي لم تجد لها تبديلاً أسست على قاعدة احتقار مواهب عبيدهم العقلية. وهذه العدد التي أعدها الخلفاء بفرط ذكائهم ظهر أثرها في زيادة خارقة للعادة على حين كانت جميع بلاد أوربا لا يتضاعف سكانها إلا بعد مضي أربعة أو خمسة قرون. ولم تنحصر عنايتهم الأبوية في حفظ الصحة والحياة فقط فمع كثرة النفوس المفرطة كانوا لا يرون أحدا يصاب بمصيبة إلا نفسوا عنه الكرب وواسوه وهذا فيما لم يمكن اتقاؤه منها، وكان يساعدهم على اتقاء النكبات واتخاذهم نظاما حسنا في استخدام البطالين في إصلاح الطرق والأشغال العامة. وكان عبد الرحمن الثاني قد أعلن أن كل من يريد العمل يمنحه. ودوائر العدل التي خلفتها محاكم التفتيش وغرف التعذيب – كما أثبته المحققون كانت منزهة عن كل ريب أو فساد وكانت المعارف والتعليم كما سترى في فصل آخر، أحسن مما كانت في ممالك الروم، ولم يكن يضاهيها إلا ما بلغه اليونان من المعارف العالية في أرقى أيامهم. والخلفاء أنفسهم شيدوا المارستانات ودور الأيتام كما كان يفعل ملوك اليونان (ومنذ زال ملكهم زالت هذه المؤسسات من أوربة) وكان الأعيان والتجار لا يألون جهدا ما اقتفوا آثار الخلفاء في العمل بهدى القرآن (في مثل هذه

الخيرات)[١]. وكان الخلفاء أنفسهم يعودون المرضي ويبحثون عن المكروبين لينفسوا كربهم.

والنساء اللائي كن قد نزلن إلى دركة الخدم في بلاد أوربة عملا بما روته التوراة في قصة حواء من المحال، ولكراهية القسيسين السابقين للزواج وإيثارهم العزوبة كن على خلاف ذلك عند المغربيين مكرمات مالكات حريتهن. والكرم إن لم نقل البذخ والسرف اللذان حلا محل التقشف والتعصب في دمشق انتقلا إلى الأندلس فكانا كافيين لحفظ مركز المرأة. والعشرة الخشنة التي يعاشر بها المسلمون المرأة كما هو مشهور عندنا لم توجد في الأندلس إلا في أواخر أيامهم. والنساء في القصر الملكي بقرطبة كن يساعدن الخلفاء في تدبير الأمور وإن مالت طباعهم إلى غير ذلك لم يكن من الصعب عليهن أن يتخادن[٢] مع الأدباء والشعراء وأصحاب الفنون الصناعية، وكان طلب العلم مباحا لهن بكل حرية وكثير منهن كان لهن ولع شديد بالعلوم الرائجة في ذلك الزمان من فلك وفلسفة وطب وغيرها. وكانت النساء يتبرقعن في خارج بيوتهن ولكنهن كن مكرمات وفي منازلهن كن مشرفات ومحترمات.

ولا في حاجة إلى أن أتكلم في ظرف المغربيين ولطفهم وشهامتهم؛ لأنهم هم الذين طبعوا الشعب الأسباني طبعا لا يمحى أبدا على الاحترام الشخصي واللطف الذي لا يزال من خواصه المستميلة حتى في الصناع والفلاحين. وهناك مزية أخرى يمتاز بها المغربيون وهي: التسامح الديني، في أول الأمر كان هناك بلا شك شهداء – يعني مقتولين لمخالفتهم في الدين – ولكن لا مناسبة بين ذلك وبين المذبحة التي عملها الأسبانيون أخيراً في ذرية المغربيين. وأما بعد استقرار المملكة العربية في الأندلس فإذا استثنينا معاملتهم لطوائف الثوار من النصارى كأهل طليطلة الذين كانوا على الدوام ينتظرون الخلاص من ناحية الشمال، فقد كان أهل الأديان جميعا يعاملون بالحسنى وكانت على اليهود والنصارى فريضة مالية قليلة تخصهم، وكانوا يتمتعون بحماية حقوقهم. فكثر عددهم وعظم بذلك الخراج الذي يؤخذ منهم، فكان الخلفاء لا يشجعون على دعوتهم إلى الدين مخافة نقصان الجزية ورخصوا

---

(١) قابل هذا مع ما تقدم ويأتي من زعمه: أن الإلحاد كان فاشيا في الأندلس بل في دار الخلافة دمشق نفسها وفي سائر المدن الإسلامية في زمان رقيها تر أنه نقض قوله بنفسه وكفانا مؤنة الرد عليه.

(٢) في هذا نظر ظاهر والذي تثبته الروايات الصحيحة أنه لم يكن هناك تخادن علني لا في قصور الأمراء ولا في قصور العامة وإنما كانت تحصل مساجلات ومشاعرات بين الرجال وبعض الأديبات من النساء.

لنصارى طليطلة في المحافظة على كنيستهم الكبرى. وأخيرا اشتريت منهم بثمن غال جداً، ورخص لهم أن يبنوا عدداً كثيراً من الكنائس وكانت لهم في طليطلة ست كنائس وكانوا مستمسكين بالعلاقات الودية مع جيرانهم حتى أثار فيهم القسيسون الضغينة الدينية. وأما ما يخص اليهود الذين كانوا يتمتعون بعصرهم الذهبي حينئذ وارتقوا إلى أعلى درجة في العلوم ونالوا أعلى المناصب في دولة المغربيين فسأتكلم عليه في فصل آخر. وهذه النبذة العامة في ذكر مدنية المغربيين ستزداد وضوحاً وتفصيلاً عند الكلام على وصف حياة قرطبة وغرناطة. ولابد أن القارئ علم مما ذكرناه آنفا تفوق المدنية التي يزعمون أنها وثنية تفوقاً خارقاً للعادة، ولابد أنه رأى أثرها في أوربة المتوحشة وهذا صحيح لا يمترى فيه أحد من المؤرخين، والمؤرخون لا يقابلون بين المغربيين والنصارى؛ لأنهم لو فعلوا ذلك لكانوا كالذي يقيس أهل «بوستون» - مدينة في أميركا - بقبائل اسكيمو. وذلك عجب عجيب. قال استانلي لين بول في شأن النصارى الذين كانوا فتحوا شمال إسبانيا: «كانت غزوات النصارى لعنة عظيمة عل من يكون لهم فريسة. وكانوا خُشُناً جاهلين أميين لا يقدر على القراءة منهم إلا قليل جداً. ولم يكن لهم من الأخلاق إلا مثلُ ما لهم من المعارف - يعني لم يكن لهم منها شيء - وأما تعصبهم وقسوتهم فهو ما يمكن أن تتوقعه من الهمج المتوحشين».

ثم قابل بعد بين الممثلين لنظام الفروسية في القرون الوسطى - يعني أشراف إسبانيا - وبين المغربيين (ص ١٨٩).

«اتصف نصارى الشمال بأقصى ما يمكن من مضادة أقرانهم المغربيين. جاء العرب تلك البلاد وهم عشائر بدو جفاة ثم رقت طباعهم إلى أن صاروا شعبا عالي الكعب في التمدن يستلذون الشعر واللطائف الأدبية. وقد وقفوا جهودهم لخدمة العلم واستقراء مسائله وفوق ذلك كله قد عزموا على التمتع بلذات الحياة إلى أقصى حد ممكن. وأذواقهم العقلية كانت لطيفة فوق العادة وظريفة. فالموسيقي والخطابة ودرس المسائل العلمية بتعطش لا مزيد عليه. يظهر أنها كانت طبيعة غريزية لهذا الشعب الزاهر. وكانت لهم سَجية معرفة النقد والولع بالمجاز والاستعارات الجميلة وتقديرها على النحو الذي ننسبه اليوم إلى الأمة الفرنسية. أما نصارى الشمال فإنهم كانوا بضد ذلك على أقصى ما يتصور. فكانوا جفاة

غير مهذبين. ولم تكن آداب نظام الفروسية، التي أدخلها المصنفون في تاريخهم، لتخطر لهم ببال. وفقرهم الشديد جعلهم خدما لكل من يريد استخدامهم وكانوا يبيعون شجاعتهم لكل من يدفع لهم أغلى ثمن لها. فكانوا يحاربون لتحصيل القوت».

ثم أرانا – يعني سكوت – أن (سيد)[١] الذي لا يزال حتى الآن زينة لكتب الأدب وزهرة من أزهار الفروسية النصرانية، كان خائناً قاسياً غداراً ناقضاً للعهود لا إيمان له ولا ذمة يبيع سيفه وعواطفه من كلا الفريقين المسلمين والنصارى.

و(ميس) جارلوت ينج التي كانت لها الشجاعة الكافية أن تقول الحق في شأن المغربيين والنصاري منذ خمسين سنة لم تجد ما تسلي به دينها إلا شيئاً واحداً وهو قولها قد بلغ الإسلام أعلى درجات الإلهام في زمان مدنية المغربيين في أسبانية ولكنه انقرض بعد ذلك. وأما النصرانية فإن لها آمالاً في المستقبل غير محدودة».

وفي هذا خطأ مضاعف. فإن مدنية المغربيين لم يلهمهم إياها الإسلام وهي لم تمت. والمدنية المستمرة التي جاءت في العصور الأخيرة ليست من النصرانية في شيء.[٢]

وأحيل القارئ على كتاب سكوت القيم فقد أطال النفس في بيان الأدلة على أن

---

(١) cid يقال أنه ولد في سنة ١٠٤٠ طار صيته في الحرب التي وقعت بين أمير قشتالة واسمه شانسوو رئيس نقار وكان داهية في الحرب وخدعها ودسائسها وبعث لجباية الخراج من المعتمد ملك اشبيلية وكانت الحرب قائمة بينه وبين أبي عبد الله ملك غرناطة وكانت الدبرة والهزيمة على أبي عبد الله وجنوده في تلك الحرب وعاد إلى برغش Burgos بغنائم وأسارى كثير واتهمه كراس أورد دونيس لدى الفونسو أنه غل شيئا من الغنائم وانتهز الملك فرصة غيبة سيد فهجم على المور ليبعد سيد عن قشتالة وكان ذلك سنة ١٠٨١ وكان اسمه الحقيقي (رودريكودياز Rodrigo Diaz) وعاش جنديا طريدا مذبذبا تارة مع النصارى وتارة مع المسلمين ومن أشهر أعماله ما عمله في بلنسية وكان معه سبعة آلاف مقاتل أكثرهم مسلمون فافتتحها بعد حصار دام تسعة أشهر ونقض كل العهود التي أعطاها أهل المدينة وأحرق القاضي ابن جحاف وذبح كثيرا من الأعيان وقسم أموالهم غنيمة بين جنوده وحكم بلنسية ومرسية أربع سنين إلى أن هزمه المرابطون ومات في تموز سنة ١٠٩٩ وهناك أساطير كثيرة اخترعها القُصّاص ونسبوها إليه.

(٢) الحق أن الإسلام ألهمهم تلك المدنية نصا على بعضها وإباحة لسائرها. والدليل على أن الإسلام دين ممدن استيلاء العرب على الفرس والروم استيلاء ثانيا وإدارتهم لممالكهم على أحسن حال وهم في ذلك الوقت لم يعرفوا شيئا إلا الإسلام والقول بأن ذلك يقع من غير المتمدن قول يستلزم أن الجهل خير من المدنية في بعض الأحيان وهو معلوم الفساد. بل الصواب أنه لا يمكن شعباً أن يتغلب على شعب تغلبا ثابتا إلا وحظ الغالب من المدنية أوفر من حظ المغلوب.

المغربيين أنشؤوا ثقافتهم العالية على خلاف القرآن[1]. وأما السجايا الحميدة التي كانت فيهم فلا شك أن القرآن جاء بها وحث عليها، وإن كان مصدرها الرئيسي هو ما جبلوا عليه من الكرم والشهامة. وكذلك تسامحهم مع اليهود والنصارى لعل بعض الناس يتعجب إذا علم أن أصله من القرآن (كما نقلت ميس ينج عن أحد كبرائهم) لكنهم كانوا أمة حرة الأفكار وغالبهم كانوا متمردين على الدين[2]. وكان في الأندلس أميال من جنات الكرم وإن كان القرآن قد حرم الخمر، ووجدت التماثيل المنحوتة والصور المدهونة في قصورهم. ودمشق التي أخذوا منها حضارتهم أصالة لم تمض عليها إلا مائة وخمسون سنة بعد وفاة محمد حتى امتلأت بالكفر والإلحاد ولم يكن الاستخفاف بالدين غير رائق في نظر الطبقة المهذبة من المغربيين كما قال سكوت، ولكن التربية والعلوم غير الدينية كانا منتشرين في أنحاء شبه الجزيرة، ولم يكن المغربيون على يقين في أن القرآن من الله[3]. والآن قد أخذنا في أنه لا فضل للنصرانية في إنشاء المدنية إلا في القرن الحادي عشر. وحتى في ذلك الوقت كانت فنونها الصناعية مصحوبة بخلال باربارية في الاجتماع والسياسة وأدب النفس. وكان الجهل مستوليا على تسع وتسعين في المائة من أهلها. وبقي قسم كبير من تلك الباربارية (كما سنراه فيما بعد) إلى القرن التاسع عشر. والحقيقة أن مدنيتنا الحاضرة لا علاقة لها بالنصرانية. ولكن المدنية التي دخلت أوربة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر كانت له صلة كبيرة بالمغربيين – أي كان مصدرها منهم – فالنور الذي أشرق في إسبانيا لم يكن بد

---

(١) وهذا تناقض من المصنف لا يخفي.

(٢) وهذا أيضا من تناقضه.

(٣) من هنا أتي المصنف وشيخه سكوت ومن على شاكلتهما لاعتقادهم أنه متى وجدت جنات الكرم والتماثيل في بلد فلا إسلام فيه وهذا جهل بالإسلام إذ لم تعدم الخمر من بلدان المسلمين حتى في زمان الرسول والخلفاء وفي بلدانهم، ولم يأمر الإسلام بإعدام الخمر لأنه رخص لغير المسلمين في تناولها فكانوا يشربونها في كل زمان ومكان وأحيانا كان يشربها بعض ضعفاء العزائم من المسلمين حتى في زمان النبي ﷺ. فمن ضبط منهم أقيم عليه الحد وهو أربعون جلدة في زمان النبي ﷺ. ثم جعلت ثمانين وفي الحديث أن النبي ﷺ. أتي برجل قد شرب الخمر فأمر بإقامة الحد عليه وكانت تلك المرة هي الثالثة فقال له رجل: لعنك الله ما أكثر ما يؤتى بك إلى رسول الله في الشرب فقال النبي ﷺ : «**لا تلعنه فلعله يحب الله ورسوله**». وأما التماثيل فاتخاذها ليس كفرا وإنما هو معصية فلا ينافي الإسلام.

من أن ينبثق إلى أوربا. فالأسبانيون الذين استولوا بالتدريج على النصف الشمالي من إسبانيا عندما أخلد المغربيين إلى أرض الترف والبذخ، وانحصروا في القسم الجنوبي – الأندلس – لم يبقوا جامدين لا شعور لهم بثقافة جيرانهم يعني أنهم أخذوا يقتبسونها وكان السياح والمسافرون من النصارى الذين يزورون مدن المور يؤوبون إلى أوطانهم فيقصون من أخبار المغربيين وعلومهم وحضارتهم الجميلة ما يهز النفوس ويشوقها. واليهود خاصة مثلوا دورا مهما في نشر الثقافة الجديدة ولكننا سنتم الكلام على مدنية المغاربة قبل أن نتصدى لهذا.

الفصل الثالث

مدينة النور والحب

مجريط (مدريد) التي كانت في القرون الوسطي قرية مظلمة، مثل قرية وأيومنك (وأيومنك Wyoming قرية في أمريكا) اليوم هي واقعة تقريبا في وسط إسبانيا وفي شمالها بالضبط سلسلة جبال وادي الرملة المتدثرة بالثلوج حتى حين مررت بها في شهر يونيو وكان الجو حاراً. ولما انطفأت نار الغيرة وحب الفتح من قلوب المغربيين تركوا هذه الناحية الشمالية ذات البرد القارس لبقايا المملكة النصرانية، فانضم إليهم الغوغاء المجازفون من فرنسة، وبمرور الزمن تألفت منهم أمة صغيرة ذات بأس وضراوة على القتال، أما كيف جاهدت هذه الأمة الصغيرة إلى أن فتحت إسبانيا كلها واستردتها تارة أخرى فهو حقيقة صفحة عظيمة في تاريخ الحركات العسكرية ويحق للأسبانيين أن يفتخروا به من حيث هو فتح، ومن سوء الحظ قد قضى هذا الفتح على المدنية.

ولست بصدد ذكر الحركات العسكرية هنا. والذي أريد بيانه أنه في سنة ١٠٨٥ استرد الأسبانيون أقصى مدينة في الشمال من أيدي المغربيين وهي طليطلة قاعدة ملك الأسبانيين القديمة. وهذه المدينة اليوم في حالة تدل على ما جناه الأسبانيون على المدنية في قضائهم على المغربيين. ولهذه المدينة موقع فريد لا تشاركها فيه مدينة أخرى. فهي مبنية على كوم من الصخور مرتفع عن الأرض والنهر محيط بها من ثلاث جهات. وفي القرن العاشر كان يعيش في تلك المدينة ٢٠٠,٠٠٠ نسمة في غبطة وسعادة. وسيوف طليطلة مشهورة عند كل مؤرخ وخبري لأن قيونها كانوا أمهر القيون في العالم وعند الكلام على قرطبة يمكن أن تجمع شيئاً من أخبار طليطلة المدينة المغربية العظيمة. واليوم، بعد مرور ثمانية قرون من استرجاع طليطلة، ترى سكانها نحو ٣٠,٠٠٠ ألفا من الكسالى يدبون دبيبا في شوارعها المهجورة الهامدة ويعيشون على كرم الزائرين. ومنظرهم يذكر الإنسان بآلاف الضباب التي تسكن خرائب يومبي (إيطاليا). لما ركب الأسبانيون ودخلوها. يتقدمهم رئيس أساقفتهم ... حين رفست المدينة تحت الأقدام وتلاشت. شيدوا فيها كنيسة فخمة فيما بعد، ولكن من جهة أخرى انحطت المدنية إلى حال أنها صارت قرية كبيرة فكأنما بنيت الكنيسة لخراب

المدينة. والجسر العظيم الذي على النهر متين جدا ومفيد كثيرا، فلذلك لم يقدروا على تدميره وباب المدينة العجيب، باب الشمس قد أبقوا عليه، فهو يظهر اليوم تذكارا محزنا لماض مجيد ينظر إلى الخراب ويندب مجده البائد وأما سائر المدينة العجيبة فكأنها لم تغن بالأمس. ولو بحثت بجد واجتهاد عن بقايا تلك العظمة الغابرة لوجدتها تلاشت وصارت كأمس الدابر. وتطوف مبهوتا في شارعها الرئيسي وهو زقاق ضيق حيث كان ربع مليون من النفوس يعيشون في نعيم تطلب مكانا طيبا تستريح فيه فتكون خاتمة تطوافك أنك تجد نفسك في حجرة قذرة تتغذي بين سائقي البغال والفلاحين. وانتحي مجد المغربي نحو الجنوب، إلى أشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة وبلنسية. وكانت طليطلة لذلك المجد كالطليعة. وكان الجنوب الشامس وطنا طبيعياً للمغربيين. ومن العجيب أن لا نجد إلا قليلا ممن يعرفون أن قرطبة كانت تضاهي في عظمة مجدها بابل ورومية وبغداد هذا، مع أن عهدها ليس ببعيد. وقد بينت أن منظر قرطبة اليوم منظر محزن. ولا أريد اليوم بهذا النوح والعويل الدائم أن أهيج أو أحاول أن أهيج سخط الناس على الدين الذي ألهم الأسبانيين أن يبيدوا هذه المدينة العظيمة. وأنا أشد تأسفا وتحسرا على خسارة النوع البشري مني على جناية أولئك الجناة. لو أن الممالك النصرانية عمرت وترقت بالعمل الصالح الذي عمله اليونان في الشرق والروم في إيطاليا. وفرنسة و(انكلند) وشمال أفريقية وبعمل هؤلاء المغربيين في طليطلة وأشبيلية وغرناطة. كيف كنا نكون اليوم؟ لو عمت أفكار قرطبة وعلومها وتهذيبها جميع أوربا لبلغت أوج المدنية وتقدم العلم فيها تقدما عظيما في القرن الثالث عشر ولكانت أميركا وسائر بقاع الأرض قد اكتشفت قبل تاريخ اكتشافها واستعمرت بحكمة وإتقان أكثر وأسبق مما وقع لها. ولكان النوع البشري بأسره اليوم متمتعاً بثروة ورفاهية ورقي وحرية وسمو فكر مثلما سيكون حوالي سنة ٢٥٠٠م.

فهل كانت قرطبة إلى هذا الحد عجيبة؟ نعم، كانت كذلك بالنسبة إلى القرن العاشر وبالنسبة إلى أي عصر آخر ما عدا زماننا هذا وكان في إمكانها أن تعلمنا دروسا كثيرة من فنون المعيشة.

لم يبق من آثار قرطبة في القرون الوسطي إلا أثر واحد وهو جامعها الذي لا يزال إلى اليوم جميع أطفال قرطبة يسمونه مسجدا ولولاه ما تجشم أحد عناء السفر لمشاهدة

قرطبة – ولو كانت على خمسة أميال منه – ولكن الناس من جميع أنحاء الدنيا يسافرون إليها ليشاهدوه. وهو أعظم معبد في الدنيا بعد كنيسة (سنت بيترس) وهو آية لا نظير لها من الهندسة والبناء، وظاهر هذا المسجد لا يستولى على اللب. ولم يكن المغربيون الذين كانوا يفضلون الإقامة داخل البيوت أكثر من خارجها يهتمون نسبيا كثيرا بالظاهر. وأما في الداخل فهناك العجائب إذا دخلت الجامع من أي باب من أبوابه التسعة عشر يخيل إليك أنك تائه في غابة من أشجار المرمر. ففيه ثمانمائة وستون سارية رقيقة من المرمر والرخام واليشب وفيه غير ذلك ألفا واثنتا عشر سارية. وفيه تسعة عشر رواقاً ينتهي كل منها بباب من الأبواب التسعة عشر. وله سقف خشبي منخفض نسبياً قد زخرف أحسن زخرف بالأرجوان والذهب. وفي الأعياد الكبيرة توقد مائتان وثمانون ثريا من الفضة والنحاس يحترق فيها الزيت العطر وتتلألأ فيها آلاف كثيرة من المصابيح فتلقي أنوارها على ذلك المشهد، وأكبر ثريا منها كان محيطها ثمانية وثلاثون قدما (فوت) يحمل ألفا وأربعمائة وأربعا وخمسين مصباحا. ولها مرآة تعكس النور فيزيد شعاعه تسعة أضعاف. وفيها ٦٠٠٠ آلاف طبق من الفضة مسمرة بالذهب ومرصعة باللؤلؤ وكان الجامع قد شيد مع مضافاته في القرن الثامن والتاسع والعاشر.

المحراب الذي هو أقدس محل في مسجد المغربيين كان فيه حنيتان وكان أعظم زخرفاً من سائر المسجد وآخر المحراب يشبه صدفة من رخام وله مدخل يتلألأ كالذهب الخالص أو الديباج بفُسَيفسائه الجميلة. وأحيل القارئ على كتب زخرفة البناء أو كتب الاستدلال ليري عجائب هذا الجامع العظيم. وكان بناؤوه من النصارى المنتمين إلى الكنيسة اليونانية، وكانت بينهم وبين المغربيين مودة فجلبوهم لبنائه. وهو أثر لمدنية زاهية لا يضاهيها اليوم شيء في الدنيا كلها. وكان عبد الرحمن الأول مؤسس هذه الدولة جعل مدينة قرطبة على مثال مدينة دمشق التي قضى فيها أوائل عمره. وهو الذي ابتدأ بناء الجامع وأتمه الخلفاء الذين جاؤوا بعده، وبلغت نفقاته على ما حدثنا به مؤرخو العرب ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار. وإنما كان هذا آخر عمل عمله في حياته. وقد شيد غير ذلك هو وخلفاؤه ورجال دولتهم قصورا فخمة ومساجد كثيرة كانت تزيد المدنية في كل سنة جلالة وبهاء، قدر سكوت سكان قرطبة في أزهي أيامها بمليون. وآخرون قدروهم بنصف مليون، ولكن مؤرخي العرب حدثونا بأنه

كان فيها عشرة آلاف قصر عشرة منها للملك. و١١٣٠٠٠ دار و٧٠٠ مسجد و٩٠ حماما عموميا و٤٣٠٠ سوق و٥٠٠٠ طاحونة على شاطئ النهر، والآن بعد «تقدمنا» كله فقرطبة بلدة منحطة حقيرة سكانها نحو مائة ألف من ذوي المناظر الكريهة الأموات وإن كانوا يعدون في الأحياء.

وكان للمدينة القديمة شوارع مساحتها عشرة أميال كلها مضاءة ومبلطة تبليطا حسنا «وإلى الآن لا تزال تطأ تبليط المور في كثير منها» ومجارى مياهها كانت منظمة جيدا ولا تزال مئات من الدور باقية، فيمكنك أن تتصور معيشة أهل البيت العربي تدخل من باب حديدي ضخم جميل، ثم تمر في دهليز قصير مظلم فتصل إلى صحن الدار (كما في جنوب أميركا) وهذا الصحن هو وسط البيت ترى هناك أزهارا ورياحين وبُسُطاً من الحرير والفِسَيْفْساء المتلألئة والنقوش العربية الجميلة وتجد في وسط كل صحن تقريبا فسقية من المرمر، كل ذلك يجعل المنزل مقاما بهيجا تحلو فيه السكنى ويطيب في العيش. وقد جلبوا الماء من أميال من نهر (سيرا) ثم وزعوه على المنازل في أنابيب من الآنك[1]. وكانت النظافة عند المحمديين فرضا مقدسا حتى أن النصارى حين استولوا عليهم[2] دمروا الحمامات.

وعندنا وصف دقيق لقصر بناه عبد الرحمن على بعد ثلاثة أميال من قرطبة. وإذا ذكرنا أن القياس ملكي فسنعرف شيئاً من أحوال معيشة أهل قرطبة في القرن العاشر. بنى هذا القصر لتكريم امرأة وهي محظيته الزهراء[3] وخلافا للقرآن[4] جعل لها تمثالا جميلا من المرمر نصبه على باب القصر وكان يشتغل في بناء هذا القصر عشرة آلاف رجل وثلاثون ألف دابة وبقوا يعملون فيه سنين، وينبغي لنا أن نفرض أن هذا القصر قد بهر مؤرخي العرب في ذلك الزمان، فلم يقدروا أن يرووا تفاصيله على الحقيقة؛ لأن وصفهم له لا يعتمد عليه تقريبا. فقد زعموا أن له خمسة عشر ألف وأربعة آلاف سارية (جلبت من اليونان وإيطاليا

---

(١) الآنك: هو الرصاص.

(٢) دمروها: يريد المصنف – لاعتقادهم أنها من فتوحات دين الإسلام.

(٣) هنا ترجم (الزهراء) بـ Flower وهو غلط لأنها مؤنث الأزهر وهو المتلألئ اللون فلعل الصواب أن يترجم Brilliant.

(٤) الصواب أن يقال: وخلافا لحكم الإسلام جعل لها تمثالا.

وأفريقيا وغيرها) والإيوان الأوسط كانت سواريه من المرمر والحجر الشفاف وكانت رؤوسها مرصعة باللؤلؤ والياقوت، وكان جريد سقفه من الذهب والفضة وكانت جدرانه وقبته من العقيق اليماني، وكان له ثمانية أبواب من الأبنوس والعاج مرصعة بالجواهر، وكان في القصر ثلاثمائة حمام فاخر مستجمع لشروط النعمة. وكانت الحدائق واسعة جداً حتى أن الحيتان التي كانت في حياضها وكانت كلها من نوع «السمك الذهبي» كان قوتها اليومي اثني عشر ألف رغيف من الخبز. وكان عدد الخدام الذكور ١٣,٧٥٠ وعدد الإناث ٦٣١٤ وعدد الخصيان والوصفان ٣٣٥٠، وقد أخبرنا بما كان يستهلك ثَمَّ من الطعام يوميا بحيث لا تخفي علينا منه أوقية واحدة. وكان طعاما فاخرا هنيئا مريئا. وكان هناك غير من ذكرنا العساكر والموسيقيون والشعراء والراقصون ورجال الدولة والأدباء لقرض الشعر والاشتغال بالموسيقي، بل حتى المباحثات العلمية والفلسفية كان لهما الاعتبار التام هنالك، وكان الإعجاب بهما لا يقصر عن الإعجاب بقد جارية حسناء راقصة أو عينين كحلاوين لخريدة محظية بيضاء في غلالة حريرية سواء من غواني الحريم. وكان عدد حرس الخليفة الخاص اثني عشر ألفا من خيرة الجنود يلبسون أفخر الحرير، ولهم مناطق مذهبة وأجفان سيوفهم كذلك كانت مذهبة، ومقابضها مرصعة بالجوهر والأحجار الكريمة وكان هذا القصر عاشر عشرة من القصور الملكية، أو «فيلات» قصور الاصطياف. وحوله كانت مساكن جميلة لخاصة الخليفة ورجال دولته المقربين وأرباب المناصب العالية. وكذلك كانت مدينة الزهراء مدينة تسبي الألباب وتسحر العقول بجمالها، وإن سألت عن حالها اليوم فهي في حال لا تقدر أن تشبع قليلا من المعز. وكل شيء هناك كان ملكيا والموسيقي المغني الخاص لعبد الرحمن الثاني كان أديباً من أعاجيب الزمان وسنذكره فيما بعد، معاشه ٤٠,٠٠٠ دينار من الذهب في كل سنة أكبر بكثير من راتب رئيس الولايات المتحدة وهذا النعيم الذي لم يمض عليه إلا أقل من خمسمائة سنة لم يحفظ منه الأسبانيون مثقال ذرة. وكان يصب في خزائن الملك في كل سنة نهر مفعم من الذهب، فيفيض منها على الأشراف والأمراء والعلماء وكبار التجار وغيرهم. وكانت القصور الفخمة ممتدة على شاطئ الوادي الكبير مسافة عشرة أميال وكان أسواقها أغنى أسواق الدنيا. فلم يسمع سامع بشيء من التوابل أو العطور أو المنسوجات الفاخرة أو الكتب الخطية النادرة أو البسط والزرابي

البديعة أو آلات اللهو في أي رجا من أرجاء الدنيا إلا وقد جلبت إلى تلك الأسواق وحال أميركا اليوم بالنسبة إلى الدنيا القديمة هي حال الأندلس في ذلك الزمان بالنسبة إلى غيرها من البلاد ولكن الأندلس كانت أعظم من وجهة المدنية. وكانت الحدائق العامة المعدة للتنزه نزهة للأبصار. وستعلم شيئا من ولوع المغربيين بالحدائق والجنات إذا رأيت الحديقة المعروفة في غرناطة بجينراليف والحديقة المسماة القصر في إشبيلية. وكان المور يتوخون الجمال في كل شعبة من شعب المعيشة. حرم القرآن الموسيقي والأشعار المجونية ومع ذلك لم يكن في الدنيا مكان أولع أهله وشغف سكانه بالأغاني والأشعار مثل الأندلس[1].

وأما الخمر فحتى الفقراء كانوا يشربونها. وقد عزم أحد الخلفاء على أن يمنع الناس من شرب الخمر وأن يتلف دوالي الكروم كلها، فمنعه وزيره وقصارى أمره أن منع شرب الخمر جهاراً. فكانت تشرب خفية إلى أن توفي.

والمغربيون أنفسهم كانوا صُنَّاعاً ماهرين في الأدوات المعدنية والجلدية، وأحسن المنسوجات الحريرية والكتانية. وكانوا يصنعون الفِسيْفساء العجيبة. وينقشون النقوش الجميلة على الأواني والأدوات المنزلية. وكانت لهم مهارة عظيمة في دهن الأواني الخزفية، وكانوا حاملي لواء زخرفة داخل البيوت والقصور وزينتها وبلغوا في ذلك درجة عالية لم يكن يعرفها أحد في الدنيا غيرهم، وكانت لهم معادن كافية من الرخام والمرمر، ومع ذلك كانوا يجلبون المرمر من اليونان وإيطالية وأفريقية. وكانت سفنهم تجلب المقادير العظيمة من خشب السدر والعاج والأبنوس وأحسن التوابل والطيب الذي يمدهم به الشرق وكانوا يجلبون من هناك الذهب والفضة والجواهر والمحار والحجر الشفاف وحجر اللازورد وجلود السلاحف وكل مادة معروفة من مواد الزينة. وكانت خزائنهم المالية عظيمة كما قلت من قبل بالنسبة إلى عصرهم، إلى حد أنهم كانوا يسيطرون على الدنيا كلها من الوجهة المالية وقد عرفوا كيف يقفون أموالهم على فنون المعيشة إلى حد لم يصل إليه إلا قليل من الأمم. وقصور الأشراف وأرباب المناصب والأدباء كانت تقارب في الفخامة والسعة قصور الخليفة. وحتى منازل أرباب الحوانيت كان لها جمال ورفاهية محتهما أعاصير النكبة التي أنزلها الأسبانيون بالأندلس. وعلاوة على ذلك فمئات الحمامات المحشاة أطرافها بالمرمر

(١) هذا سبب غلطه في نسبة الإلحاد لهم.

والفسيفساء والحدائق العامة البديعة التي كانت ممتدة على شاطئ الوادي الكبير كانت نعمة ورفاهية للناس جميعا من الخليفة إلى أدنى الطبقات. وفي كل أمر من تفاصيل معيشتهم أبدوا سلامة ذوق لا يمكننا نحن أن نأتي بها . والعشرون ضاحية التي كانت حول المدينة لم تكن أسماؤها «بوتس فيل»(١) و «نيوتن»(٢) وما أشبهها من الأسماء الخشنة بل كانت أسماؤها هكذا! «وادي الفردوس» «الوادي الجميل» «حديقة العجائب» وهكذا. ولقد صدقوا فإنها كانت كذلك وكانت مبثوثة بينها المنازل البيض المشرفات وحولها غابات الأترج والنخيل والسرو الواسعة وروضات الأزهار الغضة الباقية طول السنة تجري من تحتها الأنهار والجداول فالبحيرات والعيون، والمخابيء، والمغارات وصفوف الأشجار وكل فكرة عند الفلاحين والمتفننين في الغرس والزراعة قد استعملت هناك مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. وإذا عبرت النهر على الجسر العجيب (الذي يبلغ طوله ١٢٠٠ قدم وارتفاعه فوق الماء ٩٠ قدما) تجد ضاحية حفت بالحدائق البهيجة والروضات الجميلة تسحر الألباب ببهائها. ولو لم يكن هناك سواها لكانت المثل الأعلى في المدن.

وإذا انقضى العمل في كل يوم كانت قرطبة ترى معترك ضحك وغناء وذنوب يفوح عطرها، ومباحثات عقلية دقيقة وموسيقي شجية بجميع الآلات التي كانت معروفة لذلك العهد، وكان العباد والزهاد في قرطبة كثيراً؛ لأنها كانت تحتوى أعظم المعابد العلمية والدينية وفطاحل العلماء في الدنيا. وقد سن أحد الخلفاء وكان دينا قانونا يقضي ببناء المسجد(٣) في كل اثني عشر بيتا(٤) ونفذ قانونه، إلا أن الظرف واللطف البعيد من الدين كان هو الغالب. وأكثر الناس كانوا يمتثلون الرسوم التي يأمر بها دين الدولة، ولكن لم يكونوا متعمقين في أصولها النسكية التقشفية. فلا دمشق ولا بغداد وحتى أنطاكية في أوج مجدها ولم تكن مركزا للسرور مثل ما كانت قرطبة في حين كانت بقية أوربة متدثرة بالخرافات الموحشة ولم تكن في

---

(١) (بوتس فيل Posttsville) من أسماء الضواحي في أميركا.

(٢) (نيوتن Newton).

(٣) قابل هذا ما زعمه من قبل أن المغربيين ومن قبلهم العرب والدمشقيون كانوا غير متدينين ولا متبعين للإسلام تجده متناقضا.

(٤) وهذا أيضا شاهد على تدين أهل الأندلس خلافا لما يدعيه المؤلف. وتأمل قوله: (وأكثر الناس كانوا يمتثلون الرسوم إلخ) ترى أنه نقض ما أدعاه أولا من فشو الإلحاد في الأندلس.

الدنيا قط بلاد أسعد ولا أجمل ولا أنعم عيشة من الأندلس في القرون الثلاثة: العاشر والحادي عشر والثاني عشر للميلاد.

وأعظم مزية يمكننا أن نمدح بها المغربيين هو أن نذكر أن شغفهم بالشهوات واستهتارهم باللذات كان متحدا على نسبة سواء مع ولوعهم بالتمتع بالعلوم العقلية والمعارف الدقيقة المحققة التي كانت منتشرة بصورة أوسع مما كانت في رومية أو أثينة. ولم يكن في الدنيا كلها ولا هو كائن اليوم بلد يكرم فيه العلماء والأدباء ويكافؤون بالجوائز العظمى مثل ما كان في الأندلس، ولم يكن في الدنيا بلد غير الأندلس يحوى خزائن الكتب العجيبة والمدارس والكليات العامرة وجمعا عظيماً من خيرة الكتاب البلغاء وذوقا عاماً في المباحث العقلية مثل ما كان في الأندلس والحلقات أو الدوائر الصغيرة من الرجال والنساء المهذبين الذين كانوا في إيطالية يبحثون في الفنون والآداب في بدء النهضة، إنما كان تقليدا ضئيلا للمغربيين. وهنا وصلنا إلى ناحية من معيشتهم لنا بها علاقة خاصة إذ كانت هي أمتن ركن لتجديد المدنية في أوربة فلذلك يجب أن نخصها بفصل مستقل.

الفصل الرابع

علوم المغربيين وآدابهم

هناك حقيقة محزنة ودليل يملأ النفس غما وأسى يدل على أن الفكر البشري لا يزال ناقصا وبعيدا عن الرقي الحقيقي، وذلك أن الذين يعرفون كيف يعيشون في كل عصر قليل وبعد مضي ملايين من السنين على وجود الإنسان وستة آلاف سنة على حدوث المدنية والشعور بالوجود نحن إلى الآن نختصم في ما هو المثل الأعلى للمعيشة، وأكثر الناس لا يعرفون كيف يستعملون نعمها استعمالا موزونا. وتَبِعَةُ ذلك معظمها يعود إلى النصرانية. لكن الطبقة العليا من اليونان والمثقفين المفكرين وصلوا إلى قريب من المثل الأعلى. وعندهم أن الحكمة كل الحكمة أن نعرف كيف نعيش – وذلك إنما يكون بترقية الجسم والعقل والأخلاق بعناية سواء وحماسة سواء . لا يفضل واحد من هذه الثلاثة على قسيميه بشيء . وحتى أثينة كانت فيها معركة مستمرة لا نهاية لها بين الفلاسفة الإشراقيين أتباع زينو أعداء الاستهتار اللَّذ وخصومهم السايبراتيين أنصار الاستهتار بالشهوات وزعمائه. حتى أبقراط نفسه لم يكن يعطي للجسم حقه خلافا لما يعتقده فيه عامة الناس ولا نقول أن المغربيين وصلوا إلى درجة الكمال ولكن مثلهم الأعلى كان معقولا وممتازا، والنصارى الذين يطعنون فيهم ينقبون في تواريخهم الواسعة – وفي الأكثر من التواريخ الخسيسة التي ألفها أعداؤهم الأسبانيون غير الموثوق بهم – حتى إذا ظفروا على سبيل الندور بشيء من القسوة أو الخيانة أو الفجور أخذوه فرحين وأطالوا في شرحه بقصد التشفي والتشنيع. وكل مدنية تشع على عشرين مليونا من النفوس السعيدة لابد أن يوجد فيها أمثال تلك الهفوات النادرة، ولكن إنما يستغلها ويتجاهل الأخلاق الحسنة التي كانت غالبة عليهم المؤلفون المخادعون الذين يضلون من يقرأ كتبهم بذكر أعمال استثنائية وقعت على سبيل الشذوذ والندور. لقد قرأت جميع التآليف التي ألفت في سيرة المغربيين مستندة على ما كتبه المعاصرون لهم فرأيت يقينا لا ريب فيه أن أخلاقهم كانت سامية. ومن فضائلهم أنهم تجاهلوا واجبات الزهد والتقشف التي يأمرهم بها دينهم [1] الذي لم يروا فيه أمرا إلهيا

---

(١) وهذا أيضا من تناقضه وغفلته.

وجعلوا حياتهم بالتمتع لجميع اللذات التي يقضي بها الاستعمال الحكيم للخمر والنساء والشعر والموسيقي. وأما غيرتهم على شرفهم وشهامتهم فهناك ألف قول وألف عمل يجليها لك في أكبر التآليف التي ألفت في تاريخهم وقد ظهرت آثارها في شهامتهم المعروفة في الحروب.

وليس ظهورها بأقل من ذلك في تسامحهم مع السكان والزوار من النصارى ما داموا مستقيمين في سلوكهم وفي معاملتهم لليهود بمقتضى الأخوة التامة وكرمهم الذي هو كنار على عَلَم على المرضى واليتامى والأرامل والفقراء. ومع أنهم كانوا لا يحفلون بتحريم القرآن للخمر والغناء. فإنهم كانوا يرعون أوامر الإنسانية حق رعاية في الإحسان إلى المرضى والمحتاجين[1]. وقد حافظوا على تلك الأوامر تدينا وكرما أكثر من محافظة النصارى على مواعظ عيسى في مجلس وعظه بالجبل. وإذا درست التواريخ حق دراستها ترى أن ما يتبجح به النصارى من كونهم متمسكين بأعمال الخير والأخوة التي جاء بها الوحى تراه يتضاءل ويتلاشي أمام ما عمله المغربيون من ذلك[2]. كان عصر ملوك الرواقيين أتباع زينو في رومية عصرا عظيماً في الخيرات والمبرات وكان عصر المسلمين في الأندلس عصرا عظيماً في الإحسان والبر، وأعظم منهما عصرنا هذا الخالي من الأديان. وأما نصيب النصاري من عمل الخير والإحسان إلى المحتاجين من النوع البشري في سجلات التاريخ في القرون التسعة عشر فضئيل ناقص إلى حد يجعله مسخرة للساخرين والحاصل أن الطاعنين في المغربيين لا يستطيعون أن يغمزوهم إلا بالانهماك في الشهوات ولكن ذلك العيب المزعوم يكون مزية وفخراً إذا علمنا أن المغربيين كانوا يزنون مطالب النفس والعقل كليهما بقسطاس مستقيم، وجيلنا الحاضر على ما ورثه من تجارب ستة آلاف سنة من سير حكمائها وروايات أديانها حتى اجتمع له من ذلك ما لم يجتمع لجيل قبله منقسم إلى فريقين – ما عدا البؤساء كالكومستوكيين[3]، فريق يجدون في تهذيب النفس والترقية في العلوم العقلية والفنون العالية

---

(١) بل فعلوا ذلك تمسكا بكتاب الله وسنة نبيه الكريم.

(٢) لا تنسي أن المور عبارة عن الدول المغربية التي حكمت إسبانيا وجنوب فرنسة.

(٣) طائفة في أميركا اسمها (انتوني كومستوك Anthony Comstock (١٨٤٤- ١٩١٥)، وكان متقشفا وكان جنديا في الحرب الداخلية الأميركية. وكان يريد أن يصلح أخلاق الجيش. ثم دخل في سلك الإنشاء وصار =

ويحتقرون الشهوات ويواجهونها بوجه عبوس. والفريق الثاني قوم ذوو دماء حارة انهمكوا في الخمر والفسق وأطلقوا لأنفسهم العنان وأعطوها أقصى ما تريد من شهواتها حتى صاروا كالأنعام بل هم أضل سبيلا. وكلا الفريقين معجب بنفسه وكل حزب بما لديهم فرحون. وكل منهما يعيب الآخر ويرميه بالمثالب وكلاهما في ضلال مبين.

من المزايا التي اختص بها المغربيون، أنهم يرون أن السعادة وكمال النعمة إنما هو في المعيشة التي كانت تكفل حظ النفس والعقل في التهذيب على السواء، وكانت الدرجة العليا التي أدركوها في الشعر ناشئة عن ذلك الرقي الموزون. وكل الطبقات من أصحاب الحوانيت إلى الخلفاء ينشؤون وينشدون الشعر. وكثيرا ما ترى جماعة من الرجال والنساء في ليالي الصيف في حديقة غناء تعبق روائح رياحينها في ساحات البيوت الجميلة جالسين يتباحثون في الأشعار ويتنازعون بلطف في المساجلة في منتوجات أفكارهم. وكان ولعهم بالموسيقي ودرسهم لها يساوي شغفهم بالعلوم والآداب. وكانت الأندلس حقيقة في تلك الأيام أرض غناء وغرام وأزهار ونوافح طيب.

ولكن هذا الشغف بالموسيقي كان مزدوجاً مع شوق أعظم منه إلى استقراء العلوم العقلية إلى حد كدنا نعجز عن فهمه. فأين يوجد في عالمنا شخص يداني زرياب القرطبي[١] الموسيقي الشهير. وقد ذكرت في فصل سابق أن عبد الرحمن كان يجري لهذا الرجل ٤٠,٠٠٠ دينار ذهباً في كل سنة. وكان يعرف عشرة آلاف صوت من نغمات الغناء. وأنا لا أدرى هل ذلك فوق مقدرة المغنيين في عصرنا أم لا؟ ولكني أعلم أن ما عندهم إنما هو جزء مما كان عند زرياب وكان عالما بالعلوم العالية في ذلك الزمان كالجغرافية والطب والفلسفة مثل ما كان عالما بالموسيقي. فاخترع عطورا جديدة وأدهانا لتجميل اللون وجلب الأغذية والعقاقير ووضع طرازا صحياً للملابس وأصلح النظام السياسي وأوجد في الناس تهذيبا في الوجهة الاجتماعية. وكانت نوادره ولطائفه تروى حكما وأمثالاً في جميع بلاد الأندلس.

= زعيما للثورة على فساد الأخلاق؛ ولكنه كان جاهلا لأنه كان يعظم أمر الجزئيات ويهمل الكليات. ومن المعلوم أنه لم ينجح فيما حاوله.

(١) أصله من بلاد فارس سافر إلى العراق وتتلمذ لإسحاق الموصلي وقربه هارون الرشيد ثم سافر إلى الأندلس ودخل قصر عبد الرحمن الثاني وتوفي بالأندلس في حدود سنة ٨٥٢.

وأين يوجد حتى في هذا العصر الحديث ملك مثل الحكم الثاني الذي كان له شغف بالعلوم حتى أنه كان له رجال يجمعون الكتب من جميع النواحي في إسبانيا وأوربا حتى صارت خزائنه الخاصة تحتوى على أقل تقدير ٤٠٠,٠٠٠ – وبعض المؤلفين يقول ٩٠٠,٠٠٠ كتاب خطي. وقد أضافوا إلى الأشعار العربية والفارسية تراجم أشعار اليونانيين. وترجموا بالعربية كتب أرسطو وأفلاطون وإقليدس وسائر كتب المتقدمين. وألفوا كتبا كبارا تبهر العقول في الطب والجغرافية والفلسفة والفلك والكيمياء والتاريخ. ومؤرخو ذلك العصر يريدوننا أن نعتقد أن الحكم كان عالما بمضامين الخمسمائة ألف كتاب التي كانت تشتمل عليها خزائنه. وكانت تآليفه محل الإعجاب في جميع العالم. ولم يكن مستبداً (أرستوقراطيا) من الوجهة العقلية. وأنشأ في قرطبة عشرات المدارس غير ما كان بها من قبل، وأمر أخاه «وزير المعارف»، أن يسهل على جميع الناس اكتساب العلوم. والمؤلفون الذين يتجاهلون الحكم الثاني ويخوضون فيما وقع من عبد الرحمن الأول من القسوة على سبيل الندور والقلة ويفيضون في قسوة عبد الرحمن الثالث يخدعون قراء كتبهم.

وهذه الغيرة على بث العلم كانت عامة في ملوك المغربيين. ونظام التعليم عندهم يذكر بما كان من ذلك في رومية الوثنية ويبشر بنظام التعليم في هذا الزمان. وكان واديا خصيبا في صحراء الجهل الكبرى التي امتدت من القرن الرابع إلى القرن التاسع عشر؛ لأن النصارى الأسبانيين خربوا مدارس الأمة كما فعل أسلافهم النصارى. وسكوت الذي هو أقوى برهانا وأكثر تفصيلا أخبرنا مرارًا: أن المعارف كانت منتشرة في جميع الطبقات : «كان في كل قرية مدارس كافية لحاجة أهلها وكان التعليم فيها قائما على أفضل التسهيلات وأنفعها كل الأطفال الذين قعد بهم العُدم عن التعلم كانت الحكومة تعتني بهم وتؤسس لهم مدارس مجانية على نفقتها» (الفصل الأول ص ٤٩٥).

لم تكن هناك قرية، وإن كانت صغيرة جدا، داخل حدود المملكة قد حرمت من بركات التعليم، وكان التعليم يتمتع به حتى أولاد أحقر الفلاحين. (الفصل الثالث ص ٤٩٧).

وعلى هذا نقول: أنه يتعذر أن يوجد فلاح أندلسي لا يعرف القراءة والكتابة في حين كان ملوك بقية أوربا لا يقدرون أن يكتبوا أسماءهم في توقيعاتهم وكذلك أشراف الروم من أعلى الطبقات لم يكونوا يقتدرون على القراءة والكتابة وتسع وتسعون في كل مائة من أهل

الممالك النصرانية كانوا أميين تماماً. وكانوا على غاية من الجهل لا يمكن تصورها أضف إلى ذلك أن المعارف عند المور. كما ستراه قريبا كان معناها أوسع بكثير جدا مما كان في رومية الملكية. وكان لهم من الغيرة على العلوم مثل ما كان لهم من الغيرة على الشعر.

وكانوا يعتنون بالتعليم العالي ويعضدونه أكثر من التعليم الابتدائي. فقد كان في قرطبة ثمانمائة مدرسة. وكان التلامذة يأتون من أقاصي الأرض ليتعلموا فيها، وكانت للفقراء منهم دور إقامة أعدتها الحكومة مجانا لهم، ولهم فيها أرزاق من بيت مال الدولة تقوم بحاجتهم من طعام وشراب ولباس، وكانوا يعطون زيادة على ذلك شيئا من الدراهم معلوما لكل واحد منهم. ولم يكن هنالك اختصاص في التعليم إلا لمن يريد التخلص من الدين. ولقد قال سكوت:

إن الجامعات والكليات في أقطار الأندلس كانت كافرة[1] ترحب باليهود والنصارى والمسلمين على حد سواء. وللمور مثل سائر معناه «افترق العالم فريقين – فريق لهم علم بلا دين، وفريق لهم دين بلا علم[2] وكذلك كان الأمر في بدء عصرنا الحاضر وفي أيامنا هذه وسينتهي هذا الطور بعد قرن أو نحوه».

من ذا الذي لم يقرأ يوما من الأيام في مدرسة العمر العجيبة، تأسيس الجامعات الأولى الذي ألهمته النصرانية، «بزعمهم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر؟ وإني سائل والعجب آخذ مني كل مأخذ فقائل: كم واحدا ممن قرأ كتابي هذا قرأ قط أن إسبانيا المحمدية كانت قبل ذلك بثلاثة قرون متعطشة حرى ولا حرارة المحموم للتعلم – للعلم الحقيقي – لا لترهات كمكاتب القرون الوسطى القشرية». وكان العلم هناك بلا شك – عند المور – مائة مرة أكثر انتشاراً. وكان هو الملهم الحقيقي لحركة المدارس والجامعات التي قامت في القرون الوسطى؟ فانظر كيف يكتب التاريخ إلى اليوم متبعا فيه هوى الدين – يعني النصراني.

---

(١) وهذا أيضا يتناقض مع ما ذكره من قبل من تمسكهم بدين الإسلام وبناء المساجد والعطف على اليهود والنصارى إذا كانوا ذميين أو معاهدين وما جاء به الإسلام قال رسول الله ﷺ: **«من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وأن ريحها ليوجد من مسافة سبعين ألف سنة»**.

(٢) يريد بذلك قول الشاعر:

أصبحت فيمن له دين بــلا أدب	ومن لـــه أدب خال من الدين
بقيت فيهم غريب الشكل منفردًا	كبيت حسان في ديوان سحنون

ولم تكن حرية الفكر في الأندلس، التي أقل ما يقال فيها أنها كانت حالها أعلى وأجل بكثير منها في الممالك النصرانية، لم تكن هي وحدها تغذي حب العلم والولوع بل كان يثيره إجلال العلماء الذي زال من الدنيا بزوال دولة الأندلس ولم يرجع بعد إلى الدنيا. ولم يكن الخلفاء يقتصرون على إكرام أكابر العلماء بالجوائز والصلات العظام من المال، بل كانوا يتخذونهم أصدقاء وخاصة أصفياء ويولونهم أجل المناصب في الدولة والقصر. وكان لملوك المور رأي صائب ينبغي أن يكون قدوة لجميع المدنيات. وهو أن الرجال اللائقين بتدبير المملكة وإدارة شؤونها ليسوا البلغاء في الأقوال، أو المكرة ذوى الكيد والدسائس بل رجال العلم الذين برهنوا على كفاءتهم بسمو أفكارهم وثقوب أذهانهم. ولم يكن العلماء في الأندلس يعيشون في المعامل المظلمة. ونظر الناس واعتبارهم منصرف إلى الأشراف والأجناد ورجال السياسة. بل كان العلماء من أكثر الناس مالا ونعمة. وكان الناس لهم أشد حسدا. ولم يكونوا يحسدونهم على قصورهم الملكية وكثرة خدمهم وحشمهم، بل على علمهم. وهذا يدلنا على أن الأمة كلها كانت محتفلة بالعلم والأدب عارفة قدرهما. ولم تكن النساء محرومات من المشاركة في ذلك. وتجد في تأليف سكوت كثيراً من فُضْلَيَات الأديبات منهن. وترى أن النساء كن يساجلن الرجال في المحافل العامة حيث كان الحائزون قصب السبق في النظم والنشر ينالون جوائز عظيمة.

ولا ينبغي للإنسان أن يغلو ويتجاوز الوسط إلى الطرف الآخر فيزعم أن العلم في الأندلس كان قاصرا على زخرف القول والتطفل الظريف، وإن الماهر في نسج الألفاظ كان أسعد الناس حظا يعيش الترف والكسل؟ كلا، فإن نشاط العلماء في أعمالهم كان مدهشا فقد وصلت إلينا أمثلة رائعة من بدايات علومهم التي تفوق نهايات غيرهم، وجريدة أعمال المشهورين من علمائهم بلغت في العظمة إلى حد يكاد المرء أن لا يصدقها، ولكن سكوت أخبرنا بأن كتاب المور مع سعة خيالهم وإبداعهم في الوصف وتأنقهم فيه صادقون فيما يذكرونه من الحوادث.

وقد نسبوا إلى ابن الختيل (كذا) [1] ألفا ومائة كتاب في الفلسفة والتاريخ والطب، وأن

---

(١) لعله ابن الطفيل أو ابن الخطيب.

ابن حسن (لعله ابن حزم) ألف أربعمائة وخمسين مجلدا في الفلسفة والقانون[1] وكانت لهم معلمات عدة تزيد مجلدات إحداهن على خمسين مجلداً. وعدد المؤرخين منهم يزيد على ألف على ما قيل فيالله كم ضاع من علم وأدب كان طعمة للنيران التي أوقدتها أيدي الرهبان حين «طرد الأسبانيون الكفار من أوربة» كما يزعم المدرسون. وكان قسم كبير من تلك الكتب في علم الكلام فلا تستحق أن تعتبر هنا وكان علماء المسلمين قد جاؤوا إلى الأندلس من كل رجا من أرجاء الدنيا. وأحيانا كان يتسرب إلينا المتعصبون من أهل أفريقية فيؤيدون السلفيين الجامدين وينشأ غمام مظلم في سماء الوجهة العقلية في إسبانيا بتافه قول من قال: إن الضعف الوحيد الذي كان في أهل الأندلس إنما أتاهم من قبل دينهم[2].

ومن القواعد الثابتة: أن أكثر علمائهم اختصاصا بأمور الدين هم الفلاسفة وأنهم صرحوا جهرة بذم علم الجدل الكلامي حتى الإسلامي منه. وكانوا يعرفون جميع ضروب الفلسفة هندية كانت أم يونانية، إلا أن أرسطو كان هو المعلم الأكبر في نظرهم. لما تكلم الشاعر الكاثوليكي دانتي[3] في القرن الثالث عشر على الفلسفة لم يذكر ولا رجلا واحدا نصرانيا، وإنما ذكر بعده ابن سينا وابن رشد وساوي بينهما وبين المعلم الأكبر في الشرف حيث سمي الجميع «آل بيت الفلسفة» وذلك يدلنا على أن الفضل في النهضة الفكرية في أوربا يرجع إلى المور الذين أحبوا فلسفة اليونان بعد دروسها، قبل النهضة الأوربية الأخيرة بأربعة قرون.

وكان أرسطو يكره الهُراء الفارغ الذي يسمي فلسلة أفلاطون في الإلهيات وما وراء الطبيعة. وكان أرسطو أفضل من عرفت العرب من الحكماء وأعظم تحقيقا للمسائل العلمية. وإنه ليزيدنا إعجابا بهذه الأمة أمة الشعراء وعشاق الجمال أنهم قدسوا أرسطو، حتى كادوا يؤلهونه. وما بلغ عمر ابن سينا ست عشرة سنة حتى صار من كبار العلماء،

---

(١) إن كان يريد ابن حزم فإنه لم يؤلف في القانون أصلا كسائر علماء المسلمين في إسبانيا وإنما ألفه في الفقه الإسلامي المبني على الكتاب والسنة.

(٢) سبحان من أنطقه بهذا الكلام. وكأنه نسى ما نسبه إليهم قبل من الإلحاد والكفر وعدم الإيمان بأن القرآن من الله.

(٣) Danle.

وصار وزيرا عظيما وهو ابن الثلاثين. وأفيروس (واسمه الحقيقي ابن رشد) هو الذي ألف الشرح الشهير لكتاب أرسطو (وذكره دانتي في كتابه «انفيرتو جهنم» وهو الذي أثني عليه حتى الراهب «سافونارولا»[1] وقال فيه ذلك رجل كانت له عبقرية ربانية. وكان مكبا على الدرس ومنهمكا فيه، حتى إنه لم يترك الدرس إلا ليلتين في حياته. ليلة عرسه، وليلة وفاة والده. وكان يعتقد أن الأديان المنزلة كلها كذب. ولعل الكتاب الذي ألف في القرون الوسطى وسمي «الكذابين الثلاثة، موسى وعيسي ومحمد» كان من نتائج قول هذا الرجل الذي يحق أن يسمي فولتير زمانه — دين اليهود يصلح للصبيان ودين النصاري نسيج من المستحيلات ودين الإسلام لا يصلح إلا للخنازير[2].

ومن المحقق الذي لا ريب فيه أن أرسطو كان لو أن اليونان استمروا على التقدم في علومهم الأولى — عالما كبيرا بالطبيعيات والعلوم وبما وراء الطبيعة على السواء.

وأما فلاسفة المغربيين كابن رشد الذي كان طبيب الأمير ورئيس قضاة قرطبة، فإنهم خدموا العلم والفلسفة سواء. وكان على ذلك المتخصصين في العلوم هم الذين خدموا العالم أعظم خدمة. وتؤيليف صغير كهذا لا يسع شرح ما عمله المور في خدمة العلم ولو بغاية الاختصار، ولا سيما خدمتهم للرياضيات والفلك والكيمياء والطب.

والفصول الطوال الثمانية والعشرون التي يحتوى عليها كتاب سكوت ليست إلا إشارة

---

(١) (سافونارولا Savonarolla) (١٤٥٢ – ١٤٩٨) كان راهبا إيطاليا ومصلحا. وكان والداه يريدان أن يجعلاه طبيبا؛ ولكنه مال إلى الفلسفة وقرأ التآليف العربية التي ألفت في فلسفة أرسطو فأثر ذلك فيه شكوكا في دينه وعشق بنتا لجاره فخطبها إليه فلم يقبل. ولعل هذه الحادثة غيرت فكره فدخل الدير وبقي هناك ست سنين في زهد وسكون؛ ولكن القصائد التي نظمها في تلك المدة تشعر بأنه ينقم على الكنيسة ما كان يوجد فيها من الفساد. ونال شهرة عظيمة فصار سادنا لكنيسة (سنت مارك) فأكسبه ذلك نفوذاً عظيماً. نشأت مشاغبات بينه وبين البابا فقبض عليه وعذبوه عذابا أليماً. ثم حكموا عليه وعلى تلميذيه بالقتل وكان أحدهما مبتهجا بالقتل مع معلمه وأما الثاني فكان كئيباً. وقصاري طلبه بعد الحكم أن يجتمع بتلميذيه فنال مطلبه. ولما اجتمعوا وجدوا أن الدولة قالت لكل واحد منهم: إن صاحبيك قد اعترفا بخطيئتهما وكان قولها كذبا مبينا. ثم صلبوهما بعد أيام قليلة وأحرقوا أجسادهما.

(٢) أقول لقد أخطأ هذا الكاتب في التقسيم وجعله قسمة ضيزي لأن الأنسب أن يكون دين الخنازير هو الذي يحب أهله الخنازير ويأكلونها، والإنصاف عزيز في الصدق، فكيف في البهتان؟ ونحن ننزه الإمام ابن رشد عن هذا القول المرذول. وهذه كتبه شاهدة بضد ما زعمه المؤلف وعزاه إليه من غير ترو ولا برهان.

مختصرة لأعمال المور العظيمة. ولا ينصفهم بشرح أعمالهم إلا مجلد ضخم.

وكان علم الهيأة من أجل علومهم التي هذبوها أحسن تهذيب. وكان علماء الفلك في بغداد هم الوارثين لعلوم بابل والإسكندرية وانتقل ذلك إلى الأندلس. وكانت بيوت العبادة – المساجد – تستعمل مراصد لمراقبة حركات الأجرام السماوية كما كان في بابل. فكانوا يرصدون النجوم على رؤوس المنائر. ولعل الكلديين (ولا نقل الكلدانيين) علماء الفلك منهم، قد اكتشفوا كل ما يمكن اكتشافه بالعين المجردة، ولكن علماء الفلك من المور كانت لهم آلات ذات دقة وإحكام مركبة على رؤوس المنائر. ولم يكن عندهم (تيلسكوب) طبعا، وإن كانوا هم الذين وضعوا أساس علم النور والمرئيات وروجربيكن[1] مدين لهم بأكثر مما يتصور المعجبون به من الكاثوليكيين. وكانت عندهم عشرة أنواع من الاسطرلاب. وعدة آلات أخرى عدا ما عندهم من الكرات الأرضية والسماوية وقد اكتشفوا أن «الصاعقة» وتسمي في غير إسبانيا من بلاد أوربا «النجم الثاقب» كتلة كثيفة تدخل جو الأرض، ولهم رأي صائب في ارتفاع الهواء وقلة كثافته. ووضعوا جداول لحركات النجوم ووضعوا أول استنباط مدقق لفصول السنة وأدركوا الشذوذ الواقع في مدار الأرض ووضعوا رقوما لتعاقب الاعتدالين.

والكيمياء الأولى لفظ عربي وكذلك الجبر وهناك ألفاظ أخرى عربية تذكرنا بما للمحمديين علينا من فضل في الوجهة العلمية. لقد استنبط المور قواعد الكيمياء ولو أن مدنيتهم أبقي عليها واستمر تقدم ثقافتهم لكنا اليوم نعيش في عالم أعجب وأرقي مما نحن فيه. والعرب هم الذين اخترعوا البارود، لا أهل الصين كما يتوهم العامة – ولست أعني

---

(١) (روجر بيكن Roger Bacon) (١٢١٤ – ١٢٩٢) الفيلسوف العالم الانكليزي دخل جامعة أوكسفورد وأحرز شهادة (معلم علوم) ثم ذهب إلى باريس. وكان يلقي محاضرات في مؤلفات أرسطو. ولم تكن محاضراته ناضجة إلا أنها كانت تدل على سرعة إدراكه وثقوب ذهنه. ثم اضطر إلى ترك الاشتغال بالعلوم لمدة وجيزة لاختلال صحته لكنه ثابر على التأليف وعزم على تأليف كتاب جامع في الطبيعة لكنه رأى أن هذا العمل كبير فبادر بتأليف بعض الرسائل ثم عاد إلى إنجاز عزمه. وكتبه إليه البابا يلتمس منه أن يبعث إليه بنسخ من مؤلفاته. وكان منسوبا لجمعية الرهبان المعروفة بفرانسيسكان؛ ولكنه لم يتردد في الرد عليهم ولا سيما على علمائهم. وكانت حرية فكره سببا للقبض عليه وحبسه من سنة ١٢٧٧ إلى ١٢٩٢. وتآليفه كثيرة في التاريخ والفلسفة والطبيعيات ويقال: إنهم حبسوه عشرين سنة ومنعوا عنه الكتب وأدوات الكتابة والآلات العلمية.

أن اختراع البارود نعمة وإنما ذكرته آية على خصب عقول المور وأنه من ثمرات علومهم وهم أول من صنع البندقيات. وصنعت المدافع في غرناطة في القرن الثالث عشر. ولا شك أن الكيمياء القديمة هي الصورة الابتدائية للكيمياء الحديثة. ولقد كان فيها ضياع عظيم للأوقات في تتبع الأوهام، ولكن من الواضح أن العلم لابد له أن يجتاز ذلك الطور قبل أن يصل إلى تحليل المركبات المادية وردها إلى عناصرها الأولى.

ولهم فضل عظيم في السبق إلى خدمة الطبيعيات لمهارتهم في الرياضيات ورسموا جداول للثقل النوعي – أو الجاذبية الأرضية. وقدروا تخمينا طبيعة الجاذبية الشعرية – نسبة إلى الشعرة لدقتها – وهم المخترعون الحقيقيون لبيت الإبرة – المسماة عند العامة بالبوصلة – وأما أهل الصين فإنما أصلوا إلى العرب علم مناسبات الإبرة المغناطيسية، والعرب هم الذين ركبوها في دائرتها وأتحفوا الملاح بهذه الآلة التي لا ثمن لها عنده. واخترعوا الساعة الكبيرة ذات (البندول) والعجلة. وأتقنوا الميزان وهم الذين أبدلونا الرقوم العربية «والحقيقة أنها هندية» بالرقوم الرومية الثقيلة المتعبة[1]. وهم الذين استنبطوا قواعد علم النور والمرئيات التي هذبها فيما بعد روجر بيكن. ووضعوا قواعد الكهرباء التي بني عليها كربرت[2] مباحثه. وحتى علم طبقات الأرض (جيولوجيا) قد اشتغلوا في أساسه. ووقفوا على السنة الكونية في التفتت ودرسوا طبيعة الصخور.

وأما علم المعادن (مينورولوجي) فقد خدمه حكماء العرب في القرن العاشر. قال الدكتور «وودورد»[3] في كتابه (هيستري أوف جيولوجي – تاريخ علم طبقات

---

(١) في هذا نظر من وجهين. الأول أن رموز الغباري التي أنشأها المغربيون في إسبانيا مغايرة للرموز المسماة بالهندية. والثاني أن هذه أيضاً لم نجد دليلا بعد البحث الشديد على أنها انشئت في الهند. بل الذي تدل عليه الدلائل التاريخية أن المسلمين من إسبانيا هم الذين احدثوا هذه الأرقام التي يستعملها المغربيون اليوم وقد استعملها أسلافهم مائتي سنة قبل أن تأخذها منهم الأمم الأوربية وانظر في المعاجم الأوربية الإنجليزية مثلا تجد اسمها (أرابيان فيغرس) أي الرموز العربية وهذا لاشك فيه ومن استراب فالعرب بالباب فإن هذا الذي ذكرته موجود في جميع المعاجم الإنجليزية في مادة Arab ومعناها عرب وكان الأوربيون قبل ذلك يستعملون الرمز الكثيرة الأشكال التي لازالوا يستعملونها في بعض الأحيان في مقدمات الكتب.

(٢) Gerbert

(٣) Dr. Woodward

الأرض) [1] «ومن الذين ألفوا في المعادن وتركيبها الطبيب ابن سينا» «على حين كان المور هم قادة العلوم في الغرب» وقال الأستاذ فوربز[2] في كتابه (ذي هيستر أوف استرونومي – تاريخ علم الهيأة) [3] «وابن زرق الله من أهل طليطلة أضاف تحسينا عظيما إلى الجداول الشمسية» وقال الأستاذ ميال[4] في كتابه (هيستري أوف بيولوجي – تاريخ علم الحياة) [5] «عند الكلام في العلوم على وجه عام لقد تقدمت العلوم بسرعة تحت حكم الخلفاء» وقال «سراد وارد ثورب[6]» في كتابه (ذي هيستري أوف كيمستري – تاريخ علم الكيمياء الجديدة[7]) «لقد تقدم علم الكيمياء الجديدة تقدما معتبرا» والحقيقة أنك لا تجد البتة علما من العلوم إلا والفضل الأكبر فيه للمحمديين من أهل المغرب وأهل الأندلس. وأعظم من ذلك كله أن لهم الفضل علينا في إحياء العلوم وبث روحها عزمهم العظيم على أن يجدوا قواعد صحاحا لسنن الطبيعة الحقيقية، وإن كانت منعت من التقدم بضعة قرون بسبب ضغط الكنيسة ولكن لم يمكن محوها من ذهن الإنسان.

وسجية الإنسانية الكاملة التي كانت متمكنة من المور حملتهم على أن يعنوا عناية خاصة بعلم الطب. وكان علم الكيمياء عندهم في أول الأمر إنما هو علم إضافي لتكميل علم الطب أي علم العقاقير. ووجد المور في هذه الوجهة أمامهم عقبة كؤودا بسبب المتعصبين من أهل عقيدتهم – الدين أيضا! لأن دين المحمديين لا يبيح تشريح الأجسام البشرية.ويعتقدون أن الروح تبقي في الجسم زماناً بعد الموت فلذلك لم تتقدم الجراحة إلا قليلا وبقيت في يد الحجام، ولكن قلما نشك في أن كبار مدرسي الطب من المغربيين واليهود شرحوا الحيوان بل لا يبعد أن يكونوا شرحوا أجساد الأناسي خفية. وعلى كل حال فخدمة الأطباء العملية كانت قد ارتقت هناك إلى مستوى عال، وكانت بقية أوربا في الحضيض الأسفل. وكان أكثر

---

(١) History of Geology

(٢) Professor Forbes

(٣) History of Astronomy

(٤) Professor Miall

(٥) History of Biology

(٦) Sir Edward Thorpe

(٧) History of Chemistry

العلماء كيفما كان علمهم أساتذة ماهرين في الطب. ويروي أن دور الأطباء حتى أكابر الأغنياء منهم كانت مفتوحة في كل وقت للفقراء. وهم الذين أدخلوا كثيرا من العقاقير الجديدة إلى أوربا.

ولم يكونوا في خدمة التاريخ أقل حماسة منهم في خدمة العلوم والفلسفة والشعر. وتقدم علم تخطيط البلدان (الجغرافية) عندهم تقدماً أساسياً لأن المغربيين كانوا ملاحين شجعانا حذاقا في الملاحة في وقتهم. فكانت رحلهم واسعة على قدر طموحهم وولعهم الشديد بحب الاستطلاع والتنقيب. وليس فضلهم في خدمة علم النبات بأقل مما سبق لأن الخلفاء بعثوا العلماء لمراقبة الأعشاب والبقول عن كثب في جميع أقطار إسبانيا. وكانت حدائقهم فنية على مقتضي علم النبات، تحتوى على طرائف الشرق والغرب، وكانت عندهم أيضاً طوائف أنواع الحيوان لدرس علم الحيوان ولهم ملاحظات وتنبيهات في التاريخ الطبيعي تختلف عن القصص الجاف الذي يرويه أهل البلدان الأخرى.

وهذه الأخبار وإن كانت مختصرة جداً فهي كافية في دلالة القارئ على أن المغربيين هم الذين وضعوا فاتحة هذه المدنية الجديدة في أهم نواحيها. والحق أقول: أن هلاك ثقافتهم الذي يبدي ويعيد المقرون في تقريره ببلاغة ويسمونه: «طرد الكفار» قد أوقف رقي النوع البشري مدة من الزمان. ومهما كان فلم يكن إطفاء أنوار علومهم كلها. ولهم أولا ثم لليونانيين الأقدمين بواسطتهم يرجع الفضل في إيجاد طلائع العلم من النصاري ككربرت وروجربيكن وآلبيرت الكبير[1] وكروستست[2] فهم الذين علموهم.

---

(١) آلبيرت الكبير Albert the creat (١١٩٣ – ١٢٨٠) كان يلقب كونت بولستاد وكانوا يسمونه عالم العصر. ودخل في سلك الرهبان وعين أسقفا لبلدة راتيسون ثم استعفي وآثر العزلة في سنة ١٢٦٢ وذهب إلى كولون ليمضي بقية عمره في التأليف والتصنيف وتوفي هناك. وقد ترك أحدا وعشرين مجلداً. وكان يفوق جميع علماء زمانه في سعة علمه. وكان يقلد أرسطو تقليداً تاماً. وكان ضليعاً في شروح كتب أرسطو التي ألفها العرب واليهود والأوربيين وكان يريد أن يوفق بين آراء أرسطو وآراء الكنيسة.

(٢) روبرت كروستيست Robert gorosseleste (١١٧٥ – ١٢٥٣) درس في لنكن وأكسفورد وباريس. وتعين في منصب المعلم الأول وعلم الكلام ثم صار أسقفا. وبادر فورا إلى إزالة المفاسد الموجودة في الكنيسة فأثار على نفسه حقد البابا انوسينت الراب، لأن البابا كان يمنح المناصب الدينية في بريطانيا إلى أوباش الروم الذين كانوا يقبضون رواتبهم ولا يكلفون أنفسهم بالذهاب إلى بريطانيا. وكان كورستيست يبدل كل جهد ضد هذا

فاقرأ مثلا سيرة كربرت تجده قد ولد في جنوب فرنسة وتعلم في برشلونة ثم في جامعة قرطبة. فكل ذرة من علمه المعتبر من المغربيين. فتح كربرت مدرسة في إيطاليا فقامت قيامة الرهبان وأثاروا الرعاع عليه فأحرقوا مدرسته وكسروا أدواته وشتتوا شمل تلاميذه. والحكام الماديون لم يسعهم إلا أن يكرموا عالمهم النصراني، الذي ليس لهم غيره. فمبساعدتهم صار أسقفاً ومن مساخر التاريخ أنه صار بعد بابا وسمي (سيلفيستر الثاني) وكان ذلك في أسفل عصور البابوية. وبعد أربع سنين مات وهناك تهمة قوية أنه مات مسموما فلعنت الكنيسة ذكراه ثم هي اليوم تفتخر به !!!

لكن روح علوم المغربيين الحقيقية لم يمكن قتلها. فثقب نور مدنيتهم المشرق ضباب الخرافة والجهل ونتج شيء من الحياء ومكارم الأخلاق. وحرك رغبة أوربا في العلوم العقلية. وفي القرن الحادي عشر «التالي لعصر قرطبة الذهبي» أخذت أوربة تخرج من بربريتها. ومعظم أسبابه: التقدم السياسي الذي نشأ عنه التقدم الاقتصادي. فصارت القرى مدنا والمدن الصغيرة أمصارا. فالعامة أحرزوا قسطا من العلم والأشراف طمحوا إلى المعالي. ولما حصلت اليقظة الفكرية في الممالك النصرانية كان لازما أن تؤثر فيهم المدنية الأندلسية الزاهرة آثارها.[1]

= المسلك. ولذلك وقف عن مباشرة منصبه مؤقتاً وكان دائماً معرضا لخطر الحرمان. وفي آخر سنة من سني منصبه عصي أمر البابا بتعيين ابن أخيه أي البابا في منصب ديني ويقال أن البابا حرمه وكفره بسبب ذلك ولكن أتباعه الدينيين كانوا خاضعين له. وقد ترك آثاراً عديدة من الكتب بلغ فهرستها ٢٥ صحيفة مطبوعة بالحروف الصغيرة.

(١) يقول المترجم من عجائب الزمان إذ أحيا أهل الأندلس أهل أوربا فجزوهم بأن أماتوهم.

أريد حياته ويريد قتلي   عذيري من خليلي من مراد

وسبحان الحي الدائم.

الفصل الخامس

في أعمال اليهود

كان لليهود نصيب في ثقافة المغربيين وفي النفع العميم الذي انتشر منها في جميع أقطار أوربا فناسب أن نخصص فصلا قصيرا لهم. وليس هناك موضع أسفت على ضيق المجال فيه طبقا لبرنامجي مثل ما أسفت عليه في هذا الكتاب؛ لأن تاريخ المغربيين عظيم وخدمتهم للنوع الإنساني عظيمة جداً ومهمة، وقد غمط أكثر المؤرخين حقهم، ولعبت أيدي المؤلفين المتعصبين لدينهم دورا عظيماً ومكروا مكرا كبارا في إخفاء فضلهم فوجب على أن أقف وقتي أؤلف على الأقل ستة كتب مثل هذا في الإشادة بآثارهم. ولكننا سنوفي التاريخ الديني للنوع الإنساني حقه كاملا وسأجهد نفسي فأبدي تنبيهات قليلة عامة في شأن المغربيين.

كان عدد اليهود في إسبانيا على ما قيل يناهز مائة ألف حين دخلها المغربيون في القرن الثامن. وكان ملوك القوط الغربيين يعاملون اليهود مثل ما كان يعاملهم أهل سائر البلدان النصرانية في أوربا. كانت العامة تعاملهم بغاية الاحتقار والقسوة والوحشية لما يسمعون في حكاية الإنجيل وفي مواعظ القسيسين. وكان حكام الكنيسة وحكام الدولة ينهبون ويتلفون أموالهم بلا حياء ولا رحمة. فانظر كيف صار مؤسسو الدين النصراني عبيدا في الممالك النصرانية! [١].

ولكن يهود إسبانيا الذين هاجروا إلى هناك في أيام مدنية الروم – انتعشوا وتوقعوا خيرا لما سمعوا بأنه قد قام دين جديد في الشرق يسوس الناس بسياسة جديدة، ويعامل أهل إخوانهم في البشرية بالإحسان. وعداوة المسلمين لليهود التي نراها اليوم إنما حدثت فيهم منذ عهد غير بعيد. فالمحمديون الأحرار من أهل دمشق لم يكن يخطر لهم الحقد الديني ببال. ولذلك عاملوا اليهود بغاية التسامح. سمع اليهود أن أولئك القوم المتنورين قد وصلوا بلاد مراكش ثم طمحوا بأبصارهم فوجدوا من اليهود حلفاء وأنصارا في كل مدينة.

---

(١) يريد المؤلف بهذا أن المسيح إسرائيلي وهو الذي أسس النصرانية فكيف يصير قومه بنو إسرائيل عبيدا لعبيد أخيهم المسيح. ربما أراد غير هذا كما أشار إليه سابقاً. وهو أن بولس هو الذي أسس الدين المسيحي الحاضر وهو يهودي فكيف يجوز أن يعامل قومه بتلك المعاملة.؟

جاء المور مغيرين لأجل الغنائم ولكنهم لم يلبثوا أن وضعوا قاعدة لسياسة جديدة كما رأينا. وكان لليهود في تلك السياسة الجديدة مقام رفيع شريف. وكانوا مثل النصارى يؤدون فريضة مالية قليلة، ويلبسون لباسا خاصاً ويسكنون في محلات خاصة. ولكنهم سرعان ما برهنوا على عبقريتهم التي لا تدفع وارتقوا إلى المقامات السامية في المدارس ومناصب الدولة. وكان للنصارى مثل ما كان لهم من الحرية سواء، ولكن النصارى لم يكن لهم مثل ما لليهود من الكفاءة. وهناك شيء آخر كان يقرب بين اليهود والعرب ألا وهو التوحيد؛ لأن دين اليهود دين توحيد فكان يروق للعرب ويلائم ذوقهم من الوجهة العقلية أكثر من أوهام أساطير دين النصارى الذين لهم شرك جارف متبرقع ونسج من الخرافات في عقائده وأعماله. زد على ذلك أن العرب واليهود كلاهما من سلالة سام، وأيضا كان محمد يميل إلى اليهودية أكثر من ابنتها الشوهاء[1].

وقبل ذلك ساعد اليهود العرب في ثقافتهم في الشرق. ويقول لنا سكوت: إن أول كتاب ألف بالعربية كان مؤلفه يهوديا[2]. ولقد لخص خَدَمَاتِهِمْ في هذه العبارات (٢ . ١٦٢) «كان اليهود مدرسين وتلاميذ ومساعدين للمغربيين. وكانوا خزنة وأمناء ومقامهم السامي في الأندلس صار مشهورا في جميع أنحاء أوربا، فأخذ أولاد إبراهيم المنكوبون في جميع أقطار أوربا ينسلون من كل حدب ويأتون من كل فج عميق إلى تلك الأرض التي تفيض عليهم لبنا فصارت لهم أمة ضمن أمة المغربيين، ومع ذلك لم يكن بين الأمتين أدنى تعصب أو جفاء. وكبار تجار اليهود الذين كانوا في البلدان الأخرى يجتهدون في إخفاء ما اكتسبوه بعرق الجبين من المال صاروا يتبوؤون قصورا كقصور الأمراء ويعدون في أعلى الطبقات من الوجهة الاجتماعية، وفي الأندلس ارتقي اليهود إلى أعلى مناصب الدولة، وقد خلدت أسماء كثيرة من علمائهم الكبار منوطة بالتبجيل في سَجل علماء المغربيين الواسع، والقسم الأعظم من علماء اليهود المعتبرين الذين اشتمل عليهم فِهْرِسْتُ بارثوكشيوس هم من إسبانيا».

---

(١) يعني المسيحية. وهذا غلط يريد قوله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾. الآية.

(٢) نحن نطالب سكوت بالبرهان على هذه الدعوى ونقول له: ما اسم ذلك المؤلف؟ وما اسم كتابه؟ وفي أي من فنون العلم هو؟ ومتى وأين ألف؟ ومن رواه عن المؤلف؟ فإن لم يجب عن هذه المسائل فدعواه باطلة.

ولم يكن هناك فرع من فروع العلم في ذلك الزمان إلا وقد نالوا منه أوفر نصيب. و(الجداول الألفونسية) التي تعتبر أعظم عمل فلكي عمل في القرون الوسطي كان واضعوا أصله هم الفلكيين من اليهود وكانوا مولعين بالفلسفة جدا حتى قيل أن النسخ الموجودة بالعربية وجميع التآليف العربية التي ألفها المغربيون ترجمت إلى العبرانية، وكان شباب اليهود يترامون بلهفة على الشعر والموسيقي والتاريخ والجغرافية والفلسفة الطبيعية والكيمياء مثل ما كانوا يعنون بالرياضيات وما وراء الطبيعة. وكانوا بالخصوص أطباء نطاسيين. وكان كبار أطبائهم يقلدون المغربيون في التضلع من جميع الفنون الثقافية. فموسى بن ميمون المشهور في أنحاء الممالك النصرانية وحتى في التاريخ الحديث باسم «ميموند» كان أعظم مثل لهم في ميدان العلم. وهو من أهل قرطبة تلقي علومه في جامعتها وكان يحترف الطب، ولكنه كان أيضاً أستاذاً في العلوم والفلسفة. وما بلغ الثلاثين من عمره حتى صار عالما مبجلا من الطبقة الأولى . ثم هاجر آل بيته إلى القاهرة وفيها صار طبيب السلطان الخاص. وكان ماهرا في الفلسفة وعلم العقائد اليهودية كليهما فحاول أن يوفق بين الدين اليهودي وبين المعقول. وأعماله المقنعة أكسبته تبجيل قومه حتى لقبوه «نور العالم» قال فيه أحد المؤلفين في تراجم الرجال: «كان موسى بن ميمون عالما بالدين اليهودي وكان له تأثير بليغ عبقري في ترقية ذلك الدين حتى استحق أن يكون ثانيا لموسي المشرع الكبير نفسه». وكان ابن عزرا هو الذي يليه من علماء اليهود والعلم بالفلك والطب. والحقيقة أن نكبة اليهود إذ سلبهم النصارى الأسبانيون الفرصة الذهبية التي منحهم إياها المغربيون كانت أدهى وأمر من العذاب المهين الذي كان يصب على رؤوسهم. ولولا ذلك لاختفي تعصب الربيين وجمودهم تحت تأثير أولئك الفلاسفة اليهود الموريين، ولوصل شبعهم إلى أسعد حال.

وكون اليهود لا وطن لهم جعلهم مفيدين في نقل الثقافة الجديدة إلى ما وراء حدود مملكة الأندلس؛ لأن المغربيين أنفسهم كانوا قليلا ما يزورون أقطار الممالك النصرانية المتوحشة. أما اليهود فكان لهم إخوان في الدين في سائر أقطار أوروبا تربطهم معهم علاقات تجارية وغيرها، فبهذا السبب نقلوا مدنية المغربيين إلى تلك الأقطار. وما كادت مناصب الحكومة تؤسس في إسبانيا والبرتغال حتى تبوأ اليهود المقام الأعلى فيها.

كان (بدرو) الجبار قاسيا – وهو جدير بهذا الاسم – إلا على اليهود فلم ينلهم شيء من

قسوته فكانوا في مملكته سعداء إلا في بعض الأحيان إذ يحرض القسيسون عليهم العامة. وكان طبيبه الخاص يهوديا ووزير أمواله يهوديا. وألفونسو الثامن جعل تدبير أمور السياسة في مملكة قشتالة[١] وليون بيد طبيب يهودي. وألفونسو التاسع اتخذ غادة يهودية محظيته. وأمثال هؤلاء الوزيرات أقدر بكثير من رجال السياسة.

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزرا مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

وألفونسو العاشر الحفيظ على علم الفلك والذي بأمره ألفت (الجداول الفلكية الألفونسية) وهو أعلم ملك نصراني في زمانه. استخدم اليهود في إدخال علوم المور، الفلك والطب والفلسفة إلى بلاده. وإنما تغلب الأسبانيون والبرتغاليون على المور في أعصر طوال، وفي أثناء ذلك كانوا يقتبسون بتعطش مدنية المغربيين.

واليهود هم الذين نقلوا ثقافة المغربيين إلى ما وراء حدود جبال بيرنيه (بيرنيس) وعبروا بها البحر إلى إيطاليا وكانت مدنية المغربيين الزاهية وتسامحهم مشهورين في باريس في القرن الثاني عشر حتى أن «بيتر أبيلارد» فكر في الالتجاء إليهم ليتم استقراء دروسه العلمية في أمان[٢]. والأطباء اليهود الذين تخرجوا في أشبيلية وقرطبة كانوا يطلبون العمل في كل مكان وهم الذين نقلوا معظم ثقافة العرب إلى الآفاق كما قال سكوت (٣ – ١٤٩): «كان اليهود أعظم الوسائط في إدخال مدنية المغربيين إلى أوربة وجعل أهلها يتأثرون بها. والتاجر اليهودي الذي يخاطر بماله بل بحياته أيضا ضرب بسهم وافر في نشر الكتب الخطية والعقاقير

(١) وليون بيد طبيب يهودى . ... قال المترجم: لعل الصواب: وليون عولج بيد طبيب يهودي

(٢) بيتر أبيلارد Peter Abilard (١٠٧٩ – ١١٤٢) كان أعظم مفكر وأجسر رومي في القرن الثاني عشر. وكان يدرس العلوم الدينية والطبيعية في كلية (روتردام) وفي تلك الأثناء عشق (هيلوه Heloise) وكانت آية في الجمال والكمال وفر بها إلى (بريتاني) واتخذها زوجة فولدت له ولدا. ثم أنكرت هيلوه تزوجها به لئلا يمنعه ذلك من الخلقة وعاجزا عن القيام بالمراسيم الدينية. فانخرطت هيلوه في سلك الراهبات ودخل أبيلارد ديرا، ولكن تلاميذه لم يفارقوه؛ بل التفوا حوله فعين رئيسا لقسيسي بريتاني Britanny وكان يجادل ويخاصم الرهبان هناك مدة عشر سنين وآخر الأمر اضطر إلى الفرار إلى بلدة تسمي كلوني Claugny وعاش فيها عيشة الناسك : وعلى ذلك لم يتركه أعداؤه يستريح فاتهموه بالكفر والزندقة فحكم عليه مجلس القسوس وصدق البابا حكمهم بالكفر والحرمان وبينما هو مسافر إلى رومية ليدافع عن نفسه مات فدفنت هيلوه جثمانه في (باركليت Paraclete) وأوصت أن تدفن إلى جانبه فلما توفيت نفذت وصيتها ودفنت إلى جانبه. وقد ألف كتبا في الفلسفة والتاريخ الديني. وتوجد حتى الآن الرسائل العشقية التي وقعت بينه وبين هيلوة.

الطبية والعطور والحرير والكتان والمعادن النفيسة وأدوات الجلد والجواهر الغالية والأدوات المرصعة والمنبتة والمزخرفة بالنقوش، وبذلك عرف العالم أن في إسبانيا إلهاما وعبقرية حاجة أهل أوربا إليهما شديدة».

وحتى حين داس الأسبانيون مدنية المغربيين وعفروها بالتراب، كما فعل أسلافهم الفنداليون والقوط بمدنية الروم، وحتى حين نفي اليهود وتشتتوا في البلاد بسبب نكبة المحنة (محاكم التفتيش) التي كانت غاية في القسوة الوحشية حمل اليهود معهم مدنية المحمديين إلى كل مكان. وخلت البلاد الأسبانية كليا من الأطباء بعد ما أُجلي اليهود منها. وذهبوا إلى بلدان أخرى فعمروها وأفادوها بطبهم بدلا من إسبانيا. وكان خلق منهم وصلوا قبل ذلك إلى جنوب فرنسة حيث أنشئت أوليات المدارس الطبية النصرانية. وفي شمال إيطالية حيث نراهم قد عملوا بجد ونشاط في أول تاريخ البندقية وجنوة وفلورانسة والدول الجديدة. ولقد جزتهم الممالك النصرانية جزاء سنمَّارِ فأهانتهم وأساءت معاملتهم مع أنهم هم الذين علموها وحي الإنسانية الذي أنقذها من الهاوية التي أرداها فيها دينهم الذي يزعمون أنه أعلى الأديان.

الفصل السادس

الظفر الأسباني في أيام المحنة (محاكم التفتيش)

لم آسف على اختصار هذا الفصل الأخير من كتابي هذا، لأنه من أعظم طوام التاريخ المحزنة، لما ضعف المغربيون بسبب أنهم تقطعوا أمرهم بينهم زبرًا، وتبدل حكم العرب الأحرار[1]. بحكم البربر الذين هم غير أحرار لما جاؤوا مددا من مراكش. غزاهم الأسبانيون

---

(١) قوله: وتبدل حكم العرب الأحرار بحكم البربر إلى آخره لقد خبط المؤلف خبط عشواء في ليلة ظلماء فإن المغربيين الذين أبدأ وأعاد في مدحهم كلهم من البربر إلا أنهم كانوا ثلاث دول: الدولة الأولى: دولة الملثمين وتسمي دولة المرابطين واللمتونيين وأول ملك منهم يوسف بن تاشفين وهو أول من دخل الأندلس من المغرب حين استغاث به أهل الأندلس حين ضعفت الدولة الأموية العربية التي أولها عبد الرحمن الداخل الذي فر من دمشق إلى إسبانية في سنة (١٣٨) للهجرة، وأسس الدولة العربية الأموية في الأندلس وفي سائر بلاد أسبانية والبرتغال واستمرت هذه الدولة إلى سنة أربعمائة وسبعين فانقرضت وطغي النصارى على المسلمين واستغاثوا بسلطان المغرب يوسف بن تاشفين رحمه الله وقاتل في معبر جبل طارق وقاتل النصارى ونصره الله عليهم، واسترد البلاد كلها: أسبانية والبرتغال وجنوب فرنسة إلى (بواتيي) بينها وبين باريس ثلاثمائة كيلو متر سنة سبع وسبعين وأربعمائة، ولما انقرضت الدولة اللمتونية خلفتها الدولة الموحدية وأول من ملكها عبد المؤمن بن علي فلما انقرضت الدولة الموحدية خلفتها دولة بني مرين ولما تم لهم الحكم على المغرب كله في عهد أعظم ملك لهم وهو السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني جاءه وفد المسلمين من أهل الأندلس يستنصرونه على الطاغية الأسباني، الذي كان ملكا علي أسبانية بعد زوال دولة الموحدين فعبر إليه السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني مضيق جبل طارق وقاتل جيوش النصارى فانتصر عليهم واستولى على بلاد الأندلس من جديد، وكان ذلك في صفر سنة أربع وسبعين وستمائة للهجرة وبقيت بلاد الأندلس في جنوب فرنسة تحت حكم المرينيين إلى أن ضعف أمرهم بسبب التنازع الذي وقع بينهم على الملك كما وقع لمن كان قبلهم من الدول المغربية وآخر ملك منهم واسمه عبد الحق بن أبي سعيد المريني قتل في فاس بوم الجمعة السابع والعشرين من رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة للهجرة، وهكذا كانت نهاية الدول السابقة قبل دولة بني مرين، ولو أنهم اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لاستقام أمرهم واستمر حكمهم والعاقبة للمتقين، ومن هذا نعلم أن: الاستيلاء التام على الأندلس كان لعبد الرحمن الداخل الأموي ودولته إلى أن انقرضت وهذا زمان حكم العرب في الأندلس وبقيت البلاد الأوربية من إسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسة، ثم ابتدأ حكم البربر المغربيين باللغة الفرنسية والإنجليزية والأسبانية إلا أنهم يسمون في إسبانيا مورو ولما كنت في غرناطة ذهبت إلى ناحية الحمراء أبحث عن غرفة لأقيم فيها فانتهيت إلى بانسيون فوجدت مكتوب على جداره فوق الباب (مطامورو) ومعناه قتال المغاربة فتعجبت من ذلك فقلت من كان معي من الأسبانيين أنا لا أريد أن أقيم في المكان يقتل فيه المغاربة فضحكوا وقالوا: هذا اسم قديم ولا يعمل به اليوم على أن كل

وأخرجوهم منها مدينة بعد مدينة. ولا أريد أن أستصغر بشأن الجنود الأسبانيين وأعمالهم ولكن إذا حللناها بالتحليل الحديث، نرى أنها لا تشتمل على شيء من المعجزات. فأعلنت الحروب الصليبية – أي الغزوات الدينية – وكانت في الفظاعة والقسوة مثل الغزوة الصليبية التي غزا فيها البابا أنوسنت الثالث الأليجينيين[١] فالصلبان التي يزين الأمراء والجنود صدورهم بها من الإنكليز والفرنسيين والقشتاليين – كانت هي الإذن في إطلاق العنان للنفوس الأمارة بالسوء في النهب والسلب والأعمال الوحشية[٢].

تقدم الصليبيون وهم مزيج من كل جنس إلى قرطبة وأشبيلية في القرن الثالث عشر، ومن ذلك العهد أخذت قرطبة التي كانت في علياء المجد تتقلص وتتضاءل حتى صارت قرطبة القرن التاسع عشر قرية حقيرة. ودمر هؤلاء تقريبا كل آية وإن دقت من آيات مدنية

= من درس تاريخ اللغات السامية كيف ما كان جنسه عربيا أو عجميا يعلم يقينا أن البربر أصلهم من جزيرة العرب والدليل على ذلك: أن الفعل المضارع في لغة البربر كله يبدأ بالهمزة إذا كان للمتكلم وحده ويبدأ بالنون إذا كان للمتكلم ومعه غيره أو المعظم نفسه، ويبدأ بالتاء إذا كان للمخاطب، ويبدأ بالياء إذا كان للغائب ويبدأ بالتاء إذا كان للغائبة ومن يعرف اللغة البربرية يعلم هذا يقينا فهناك علامة أخرى تتميز بها لغات الشعوب الخارجين من جزيرة العرب وهي وجود العين والحاء في لغتهم وقد خرج البربر من جزيرة العرب وأسسوا مملكة في بلاد الشام واسم ملكها جالوت وهو مذكور في القرآن الكريم في سورة البقرة وهو الذي قتله داود عليه السلام ثم انتقلوا إلى الشمال الأفريقي والعرب والبربر جنس واحد ولا ينبئك مثل خبير.

(١) نسبة إلى (البجنس Albigens) وكانوا خوارج على الدين المسيحي ومبتدعين فيه في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وكانت عقيدتهم بالزهد والتقوى؛ ولكنهم كانوا يخالفون القساوسة وينقمون عليهم ما كانوا يرتكبونه من الفساد. فاتخذ القسيسون وفي مقدمتهم البابا وعذبوهم أشد العذاب وكانت غاية هؤلاء القسيسين الاستيلاء على الماديات من متاع الحياة الدنيا لا غير. ونصبوا مجازر ذبحوا فيها خلقا كثيرا وقتلوهم تقتيلا فظيعاً. وكان الألبجينيون قد أخذوا بشيء من المدنية. ولكن المذهب الكاثوليكي وقف عقبة كؤودا في طريقهم وكان البابا أنوسنت الثالث المغرور قد أعلن الحرب الدينية عليهم. فظهرت حينئذ صفحة من أفجع صفحات التاريخ، وأبرزت المصيبة نفسها في أفظع صورة وأحلكها. وقتلوا آلافا من أولئك المساكين. ومن المعلوم أن الألبجينيين دافعوا عن أنفسهم دفاع المستميت، ومع أن الكنيسة أجمعت جميع قواها عليهم فقد خسرت كثيرا من العدد والعدد حتى كسرت شوكتهم وأحرقت منهم مائتين في يوم واحد. وأصبح تاريخهم أحلك صفحة من العصور المظلمة.

(٢) يعني أنه بمجرد حمل الصليب والتوجه لغزو المخالفين يحل للغازي كل شيء يريده فيمن يغزوهم.

المغربيين وذكريات فنونهم، حتى سووا كل ذلك بالتراب. نعم بقيت هناك منارة صغيرة ولكنها فخيمة، تسمي جيرالد لتخبر العالم ماذا خسر هناك. وعمد أولئك الهمج إلى الآلات العلمية فحطموها وجعلوها رميما. لأنهم كما قال سكوت: «كانوا يعتقدون اعتقادا جازماً أن تلك الآلات خطرة ويظنون أنها آلات جهنمية لأعمال السحر واستخدام العفاريت». وأخرجوا الكتب وكانت لا تحصى كثرة وجعلوها أكواما في الأزقة وأوقدوا فيها النيران. وأسلمت القصور المشيدة الجميلة والحدائق البهيجة لأيدي الخراب والضياع. ولما رأي الملك أنه ليس له قصر ملكي في المدينة التي كانت أكثر المدن مساكن عالية وقصورا فخيمة أفاق من سباته وبعث في طلب الصناع المتفننين والعملة من المغربيين فبنوا له «ألكَزَرْ» القصر الذي نزوره اليوم. وحجراته مثل المقصورة المسماه «هال أوف أميسد روز – مقصورة السفراء» تخبرنا بأن المغربيين كانوا يعرفون كيف يعيشون.

استراح الأسبانيون قرنين كاملين وبقي الشعبان عائشين في سلم وأمان كالأخوين. وكان الأسباني بطبعه يحب أن يعيش مع جيرانه في سلام ويعظم الشعب الذي كان يراه بالغاً ذروة العبقرية. ولكن القسيسين الذين بلغوا في العصبية الحضيض الأسفل كانوا يضادون ذلك الميل. فما زالوا يفتلون للحكام في الذورة والغارب ويحرضونهم على عدم التسامح في المدن النصرانية الجديدة مع القوم الذين هم بناتها وهم مزينوها، وأخيرا نجحوا في مطلبهم وهو: أن كل مسلم يوجد في بلدانهم يخير بين أمرين: إما التعميد والتنصر وإما الجلاء[1]. فاختارا المغربيون الجلاء فرارا بدينهم وشعبهم ليعيشوا في جو أمان واطمئنان. فنشأت منهم مملكة في ناحية غرناطة عدد نفوسها ثلاثة ملايين. وكان ذلك في القرن الخامس عشر وهو من عجائب الدنيا ومن مخازي الأمم النصرانية. فالبلاد التي نشاهدها اليوم في غاية الفقر والخراب كانت هي فردوس أوربة في زمان المغربيين.

---

(١) ويناسب هذا المقام ما ورد في كتاب (ماذر أمبركا – الأم أمبركا) تأليف الدكتور بوز الهندي فيما نقله عن القسيس الأمبركي كيلكي Cilkey من أكابر علماء أمبركا وهذا معناه: هل نحن الأمبركيين نصاري حقيقة أم الشرقيون هم النصاري حقا؟ نري أن الشرقيين يؤمنون بالمسيح ويتبعون أوامره، ويستنكفون عن أتباع مذاهب الغربيين فيجب علينا معشر الأمبركيين إما أن نثبت ادعاءاتنا وإما نتركها بتة؛ لأننا نرى في الشرق أن الأجنبي يعامل بكل لطف واحترام ويبذلون كل جهد في إسعافه بما يحتاج إليه. وكم واحد منا يعامل الشرقيين كما ينبغي أن يعامل به البشر؟.

وقد جلب المغربيون مياه كثيرة من الجبال وأعالي الأنهار بسبب علمهم ونشاطهم اللذين ليس لهما نظير فوصلت الفلاحة والغرس بذلك إلى أوج رقيهما. قال سكوت: «لقد فاقت في علو قدرها وأهميتها في نتائجها العملية جهود جميع الأمم المتقدمة والمتأخرة» قلت: ولاشك أن هذه مبالغة في التقدير ، ولا يقبل هذا الكلام حتى لو قيل قبل عشرين سنة، لكن مقابلة زراعة المغربيين بما كانت عليه أوربا من البؤس والعدم على وجه العموم تجعل لها أعظم وقع في النفس. والنتيجة أن الأقوات كانت كثيرة ورخيصة في الأندلس وكانت أنواعا مختلفة وصارت غرناطة مثل قرطبة غنية وجميلة جداً. وكانت جنات الكرم والتوت الواسعة تؤتي أهلها أحسن الخمور وأجود الحرير. وكانت الفرض[1] التي وراء الجبال على البحر المحيط تمدهم بجميع الطُّرَفِ ومواد النعمة والرفاهية النادرة التي كانت توجد في قرطبة. وكانت الصناعات المغربية أيضا في أوج ارتقائها وكانت هناك مقادير عظام من الجواهر تجعل فيها من الزينة والزخرفة مالا يأتي عليه الوصف وكان ذلك الزخرف في الأسلحة البديعة والحلل الفاخرة والأثاث النفيس.

ومن حسن الحظ بقي قصر الحمراء الملكي ليرينا الجلالة والتأنق والإبداع في فنون المغربيين. وحتى هذه الدرة أصابها ما أصابها على يد الأسبانيين وكانت سائرة في طريق الخراب لولا أن بقية أوربا وأمريكا أجبروهم على أن يقنوا شيئا من الحياء. وحتى في هذا اليوم يجد فيها الإنسان معني هذا اللفظ «أرض عبقر» حين يخرج من دهليزها المظلم إلى عرصة الأسود. فيري سواري المرمر الدقيقة كأغصان البان ويتملي بالنظر إلى سطور الأساطين المستقيمة وسقوفها المصبوغة بالألوان الزاهية إذا نظرت إليها خلتها زرابي فارسية مرقشة، أو رياض أزهار بهيجة قد اشتبكت فيها أشجار الصناعة العجيبة. ولها طنوف مشرفة قد أفرغت في قوالب بديعة يحار الواصف في وصفها. وأما جدرانها ففيها من الترقيش العربي والتشجير والزخرف والأمثال والحكم المسطورة بأجمل شكل شيء يذهل العقول ويروع الناظرين . ولكن ينبغي لنا أن نتصورها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر حين كانت الثياب التي تري فيها كلها من الحرير الخالص وحين كانت جدرانها تتلألأ بألوان الَّلازَوَرْدْ والأَرْجُوَانْ والذهب، وحين كان الآس والأترج والورد، ومباخر الفضة

---

(١) تعرف عند العامة بالموانئ.

يحترق فيها عود الطيب تفعم جوها بالروائح الطيبة. وكانت على الجبل المجاور لها وسهوله الواسعة الأرجاء عشرات الألوف من القصور الفخام التي لا تقل جمالا وإبداعاً في الذوق عن الحمراء، إلا أنها أقل تلألؤا بالذهب والفضة والجواهر. قال سكوت متلهفًا: «ماذا عوضنا الغازي الصليبي القتشالي الهمجي عن تلك القصور؟ وأي فائدة يجنيها النوع البشري من وراء تخريبها؟».

فليجب عن هذا السؤال أولئك الذين يمجدون طرد الكفار من أروبة. وكان الأسبانيون قد أحرزوا جندا عظيماً. أما المغربيون فقد نقص عددهم من ثلاثين مليونا إلى ثلاثة ملايين. ولم يكن ملك إسبانيا فرديناند[١] وملكتها إيزابلا[٢] عديمي شهامة وعظمة كشهامة المغربيين وعظمتهم فقط، بل لم يكن لهما شيء من المروءة العامة والحياء. أغار هذا الملك على أموالهم – أموال المسلمين – فنهبها وتركهم يموتون جوعا وبذلك قهرهم وألجأهم إلى التسليم. حتى الناقدة النصرانية ليدي تشارلوت يونج رق قلبها لما أصاب المغربيين فقالت في (ص ١٩٠) تذكر العهود والمواثيق التي أعطاها الأسبانيون المغربيين والشروط التي

---

(١) فرديناند الخامس Ferdinanad ملك قسطيلة وليون (١٤٥٢ – ١٥١٦) تزوج بابنة عمه إيزابلا سنة ١٤٦٩: وكانت ابنة الملك هنري الرابع. وإنما تزوج بها ليتخذ ذلك وسيلة إلى نيل الملك بلا مشقة. ولما مات الملك المذكور اجتهد فرديناند في أن ينادي نفسه ملكاً، ولكن إيزابلا كانت داهية مكارة فرأي فرديناند أنه لا يتمكن من إخضاعها. فاتفق معها على أن يتشاركا في الحكم. وكانت أخلاقه سيئة يدل على ذلك الأعمال الرذيلة التي ملأ بها حياته. فمنها نقض عهده الذي أعطاه إلى كريستوفر كولومبوس وسوء ظنه في زيمنس وبالرمان الشهير الملقب (بالرمان الكبير) ويقال: إنه كان يفتخر بأنه خدع لويس الثاني عشر ملك فرنسة اثني عشرة مرة ومن المحقق أنه كان كلما عقد معاهدة مع أي شخص كان يترك فيها ألفاظا يمكنه أن يتخذها وسيلة لنقض العهد. وأعظم دليل على خبثه أنه لما ماتت إيزابلا ادعي أنه الوصي على ابنتها المجنونة التي لها الحق أن ترث أمها في الملك وأخذ ذلك ذريعة إلى الاستقلال بالملك ولم يبال بزوجها فيليب أميرها بزبورق ... لكنه أخفق في مكره لأن الأمراء عارضوه في ذلك. ولم يلبث فيليب أن مات فتم لفرديناند ما أراد واستحوذ على الملك. وكان يضطهد العلماء الذين لا يوافقونه.

(٢) إيزابلا Isabella (١٤٥١ – ١٥٠٤) ملكة قسطيلة. استولت على الملك سنة ١٤٧٤ داهية مكارة متعصبة. بذلك كل جهدها في تجديد المحنة وتعذيب المسلمين واليهود . وارتكبت خطايا كثيرة باسم الدين. وأما أحوالها الخاصة فلم تكن مما تغبط عليه: لأنها كانت تفخر بأنها لم تغتسل في حياتها إلا مرتين يوم ولادتها سنة ١٤٥١ وليلة عرسها سنة ١٤٥٩. وغسلت حين ماتت سنة ١٥٠٤ فتمت لها الغسلة الثالثة والحقيقة أنها لم تغتسل إلا مرة واحدة وهي في ليلة عرسها. لأن غسلها يوم ولادتها وغسلها يوم موتها ليس من عملها.

اشترطها المور عليهم ما نصه[1]:

«تكون غرناطة حرما آمنا لكل من يلتجئ إليها من المسلمين من جميع الأقطار، ويكون

---

(١) وقد رأينا كلاما في (نفح الطيب) للمقري أشار فيه إلى كيف دخل الأسبانيون غرناطة وذكر بعض شروط الصلح فأحببنا إثباته هنا ليكون شاهدا لما ذكره المصنف وشارحا لما خفي من كلامه. ففي المجلد الثاني ص: ٦١٥ ما نصه : (وفي ثاني ربيع الأول سنة سبع وتسعين وثمانمائة استولي النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان وهنا خوف الغدر وكانت الشروط سبعة وستين منها: تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم وعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم، وأن تبقي المساجد والأوقاف كما كانت، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحدا، وأن لا يولي على المسلمين نصراني أو يهودي ممن يتولي عليهم من قبل سلطانهم، وأن يفتك من أسر في غرناطة من حيث كانوا وخصوصا أعيان نص عليهم، ومن هرب من المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء، ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، ولا يقهر من أسلم من النصارى على الرجوع لدينهم وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد ولا يعاقب من قتل نصرانيا أيام الحرب ولا يؤخذ منه ما سلبه في أيام العداوة ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ، ولا يسفر لجهة من الجهات. ولا يزيد على المغارم المعتادة وترفع عنه جميع المظالم والمغارم المحدثة؛ ولا يطلع نصرانى للسور ولا يتطلع على دور المسلمين أو لا يدخل مسجدا من مساجدهم؛ ويسير المسلم في بلاد النصارى آمنا على نفسه وماله ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن، ولا يمنع مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منهم يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة – لعله البابا – ويضع خط يده وأمثال هذا مما تركناه .... ثم أمر سلطان المسلمين أن ينتقل لسكني البشرات وأنها تكون له في سكناه بأندرش فانصرف إليها ثم احتال – يعني الفونسو- في ارتحاله لبر العدوة وأظهر أنه ذلك يطلب منه. وكتب لصاحب المرية : (ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاي أبا عبد الله من السفر حيث أراد من بر العدوة (يعني مراكش القطر) ، ذلك: حدثنا بيكن في بعض كتبه عما جرى من جماعة القسيسين الكاثوليكيين وذلك أنهم عزموا على أن يعرفوا كم عدد أسنان الحصان، فراجعوا جميع ما عندهم من آثار آباء الكنيسة الأولين من الكتب ثم تصفحوا كتاب أرسطو، ولكنهم لم يظفروا بمطلوبهم فاتفق رأيهم على أن عدد أسنان الحصان سر من الأسرار الأبدية لأنه لن توجد بينة لا تاريخية ولا دينية تدل على عددها، وأخيرا قام تلميذ متهور فارتأى وهو أن يعمدوا إلى الحصان ويعدوا أسنانه، فقامت قيامة القسيسين وأجمعوا على أن الشيطان قد استحوذ علي هذا التلميذ المتهور، لأنه يريد أن يتخذ سبيلا إلى حقيقة غير سبيل آباء الكنيسة الصالحين.

لأبي عبد الله (الملك) ضيعة في أرض (البوجارا - البشرات) وأن جميع سكان البلد حتى الذين أسلموا من النصارى يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبيوتهم وسلاحهم وخيلهم ولا يسلمون إلا الأسلحة النارية، وأن يتمسكوا بشريعتهم وعاداتهم ولغتهم ولباسهم. وأن تكون مساجدهم مصونة من أي استعمال في غير عبادتهم . وأن دعاويهم تفصل على أيدي قضاتهم المحكمين من قبل الحكام الأسبانيين، وأنهم يؤدون لملك قشتالة من الخراج مثل ما كانوا يدفعون لملوكهم لا غير، وأنهم يعفون من دفع الخراج مدة ثلاث سنين ليستجمعوا ويستردوا ما فقدوا من أموالهم بسبب الحرب والحصار».

ثم أخذت المؤلفة النصرانية المسكينة تتململ في سائر ما بقي من صفحات كتابها من أجل غدر الملك والملكة الأسبانيين ونقض عهودهما التي أعطياها المغربيين، لم تشعر الملكة الناسكة بوجوب معاملة المغربيين بمقتضي الشرف، بل لم تشعر إلا بشيء واحد وهو أنه يجب أن تؤسس (مملكة نصرانية) كاد الناس يتميزون من الغيظ، كيف يتولي عليهم حاكم محمدي كافر أخذ من المسلمين أحد مساجدهم وجعل كنيسة. قالت المؤلفة المذكورة: (وكان ذلك نقداً للعهود ثم نفي اليهود وعوملوا بأعظم همجية وحشية[1].

ولم ينجح القسيسون في تنصير المغربيين مع أنهم أحرقوا مصاحفهم وكتبهم كلها علانية. وجعل أمر المسلمين من الوجهة الدينية إلى رئيس أساقفة طليطلة «المقدس» زيمنس .... وباختصار قد نقض كل سطر من سطور المعاهدة. وغدر الأسبانيون وأهانوا عهودهم، فهاجر قسم عظيم من المغربيين تاركين وراءهم كل ما يملكونه، وذهبوا إلى أفريقية. ولكن القسم الأعظم بقوا هناك ينافقون بإظهار النصرانية. ومن لم يقبل النفاق منهم صاروا عبيدا للنصارى الغادرين. ثم جاءت المحنة (محاكم التفتيش) فحرم عليهم كل شيء من أمور دينهم حتى الاغتسال في حماماتهم، ونهبت مئات من بيوت المغربيين واليهود وطردوا من البلاد

---

(١) ولا يستغرب ذلك؛ لأن البر والرحمة في نظر أولئك القوم كانا من الرذائل لا من الفضائل. وناهيك بما ذكره الدكتور يوز في كتابه (ماذر أميركا) وهذا معناه: رأيت عجوزا في غداة باردة تبحث في كوم من الزبالة أمام فندق وتلتقط فضلات الطعام منها جاهدة نفسها في ذلك، فلم أتحمل رؤية ذلك المنظر المحزن فذهبت إليها ودفعت لها قليلا من الدراهم، ولما علم بذلك سكان الفندق لم يقابلوني إلا بالسخرية والاستهزاء وقالوا: لا تنبغي إعانة هؤلاء البؤساء بأي وجه من الوجوه. وقد تفضلوا على بهذه النصيحة مجانا.

التي مدنوها وعمروها، ولم يبق هناك منهم إلا العجزة الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فكانوا يسجدون لصورة المسيح في الملأ ويبصقون عليها في خلواتهم(١).

لا يوجد إله وإنما يوجد فكر الإنسان(٢) الذي أوقد مصباحه اليونانيون جدد إضاءته المغربيون وهو اليوم أقوى من أن يقدر أي بابا على قتله. وبينما فرديناند وإيزابلا يختمان عهد القرون الوسطي تحت سلطان البابا إذ بالنهضة الأوربية الحديثة تأتي على ذلك البنيان من القواعد فتنسفه نسفا وتمحو سلطانه من إيطالية. ويقول ستانلي لين بول المؤرخ اليقظ:

---

(١) ولا غرابة في ذلك لأن الكاثوليكيين لم يحسنوا معاملة المسلمين ولم يكن لهم علم، فكانت أعمالهم وأقوالهم ناشئة عن الجهل بعيدة عن التحقيق. ومثال ذلك ما رأيناه من كتاب (ماذر أميركا – الأم أميركا) تأليف الدكتور يوز الهندي. وهو من المضحكات العجيبة وهذه ترجمة ولم يقتصر على إتلاف جميع النسخ التي ظفر بها من القرآن بل كان يتلف كلما وصلت إليه يده من الكتب العلمية والأدبية. وهو الذي أمر بنص محاكم المحنة وتعذيب المسلمين تعذيبا كاد يحدث ثورة. وحينئذ ظهر بمظهره الحقيقي. وأخذ يعيش عيشة الملوك. حتى أنه لما مات فرديناند قام زيمنس ونصب نفسه نائبا للملك شارل لأنه كان غائباً. تمتع برئاسة الوزارة عشرين سنة ثم عزل ومات غما من أجل عزله. وكان قاسي القلب شديد الحقد لكل من يخالفه في الرأي ولو كان من أهل دينه. وكان رئيسا لمحاكم المحنة فقتل ألفين وخمسمائة شخص وتحمل إثم دمائهم في ذمته. ولاشك أن أعماله القاسية أحدثت ثورة؛ ولكنه قضى عليها بمكره وكان لا يستنكف أن يكون قائدا للجيش بنفسه متى اقتضت المصلحة ذلك.

(٢) لقد ترددنا في إثبات هذه العبارة البشعة الشنيعة واستنكرنا إدخالها في كتابنا غاية الاستنكار وهممنا بحذفها ثم بدا لنا إثباتها حرصا على الأمانة في النقل وإطلاع القراء على ما يقال كيفما كان لأن العلم بما يقوله مؤلف كبير مثل هذا في بلاد كأميركا ليس بسر يخفي وقد ينافي ذلك القرآن فإن الله تعالى حكى عن أهل الكفر جحودهم فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ﴾ إلى غير ذلك ونحن نقول:

وكيف يصح في الأذهــان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل
وفي كـــل شيء لــــه آيــــة ... تـــدل على أنه الـــواحد

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

وأما قول المؤلف: إن المسلمين كانوا يبصقون على المسيح في خلواتهم فهو خطأ منه فإن المسلمين من أركان إيمانهم تعظيم المسيح والإيمان بأنه روح الله وكلمته ومن أخل بهذا فليس بمسلم أما التماثيل والأصنام فلا يعظمها المسلمون كيفما كانت وإن عبدها غيرهم.

«بينما كان زيمنس[١] رئيس محاكم المحنة في إسبانيا يصدر أوامره بمنع المسلمين من الاستحمام واختيار صفة الوسخ التي يتصف بها فاتحوهم[٢] كان نصف أهل أوربة يرفضون دعاوى الفاتيكان ويتخذونها سخريًا، وكان العلماء يضمون أساس العلم الحديث والآن قد درسنا القوة الممدنة العظيمة الأولى التي جاءت إلى أوربة الباربارية، ثم تلتها النهضة ثم أشرقت أنوار الإصلاح ووفرت ظلاله، وأخيرا ظهرت المصادر الصحيحة للعلم في أواخر العصر الأوسط».

---

(١) زيمنس Ximens (١٤٣٧ – ١٥١٧) كان رئيس الأساقفة وفي أوائل أيامه وقعت عداوة بينه وبين المطران الكبير في طليطلة فحبس مدة من أجل مكائده. ثم تعين قسيسا خاصا لسماع اعترافات ايزابلا. وكان يتظاهر بالزهد والتقشف والورع الكاذب. ولما استولى فرديناند وإيزابيلا على غرناطة دعواه ليكون في خدمتهما هناك. وهو الذي أشار عليهما بالكيد للمسلمين والغدر بهم.

(٢) نظافة البدن التي كان الأقدمون يعتنون بها كل الاعتناء أهملت كل الأهمال بعد انقراض دولة الروم حتى أن أهل أوربا لم يكونوا يغتسلون إلا في أحوال خاصة وناهيك أنهم كانوا يفرضون الغسل على من يرد الدخول في جماعة (نايتس) وهم أمراء الحروب الصليبية ولذلك كانوا يسمونهم فرسان الحمام. وكان الملوك والملكات يقتدون برعاياهم في عدم النظافة حتى أن الملك العظيم لويس الرابع عشر لم يغتسل قط، بل كان يكتفي بالادهان بالعطور ولم تكن توجد حمامات في قصور الأمراء والأغنياء إلا في أواخر القرن التاسع عشر.

خاتمة الكتاب

قال مترجم الكتاب، محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي عفا الله عنه: هذا آخر مدنية المغربيين في الأندلس وهو الاسم الذي اختاره المؤلف لكتابه فعسى أن ينتفع به المغربيون والشرقيون وجميع المسلمين في الأرض، فيشمروا عن ساق الجد ويحيون ميراثهم ويردون مجدهم الذي فقدوه بإعراضهم عن الكتاب والسنة والتخلق بأخلاقهما والحكم بهما في كل القضايا فيرد الله لهم مجدهم الغابر وينصرهم على كل عدو للإسلام وإن عظمت قوته كما نصرهم من قبل على الأوربيين الأسبانيين والفرنسيين فنشروا العلم، وأخرجوا أولئك الأقوام من الظلمات إلى النور، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفهارس

فهرست المقدمة

فهرست الكتاب

الفصل الثاني: المور في أوج مجدهم

الفصل الثالث: **مدنية النور والحب مجريط**

الفصل الرابع: **في علوم العرب وآدابهم**

الفصل الخامس: في أعمال اليهود

الفصل السادس: زمان المحنة ومحاكمها

فهرست الحاشية

المصادر التي رجعنا إليها في تأليف هذه الرسالة

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي.

(٢) تاريخ العرب في إسبانيا لمحمد عبد الله عنان.

(٣) مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع.

(٤) ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام لدوري ترجمة كامل الكيلاني.

(٥) رحلة الأندلس تأليف محمد لبيب بتنوني.

(٦) عابر الأندلس وحاضرها تأليف محمد كرد على.

(٧) قاموس الجغرافية القديمة لأحمد زكى.